١

صفوة التفاسير

القسم الأول

تفسير
سورتي الفاتحة والبقرة

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الأول

تفسير

سورتي الفاتحة والبقرة

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى – مكة المكرمة

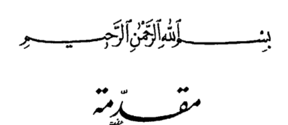


دار القرآن الكريم

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



مقدّمة

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين ، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمةً للمؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي الأمين ، الذي فتح الله به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم البعث والنشور ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وأصحابه الهادين الأبرار ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فلا يزال القرآن الكريم بحراً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف ، يحتاج من يرغب الحصول على لآلئه ودرره ، أن يغوص في أعماقه ، ولا يزال القرآن يتحدّى أساطين البلغاء ، ومصاقيع العلماء ، بأنه الكتاب المعجز ، المنزّل على النبي الأمي شاهداً بصدقه ، يحمل بين دفتيه برهان كماله ، وآية إعجازه ، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم : ﴿نَزَلَ به الروحُ الأمينُ. على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ. بلسانٍ عَرَبي مُبين﴾ .

وعلى كثرة ما كتب العلماء وألفوا ـ وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفار ضخمة ، وكتب نفيسة ، خدم بها العلماء كتاب الله الجليل ـ يبقى القرآن زاخراً بالعجائب ، مملوءاً بالدرر والجواهر ، يطالعنا بين حينٍ وآخر ، بما يبهر العقول ويحيّر الألباب ، بما فيه من الإشراقات الإلهية ، والفيوضات القدسية ، والنفحات النورانية ، بما هو كفيلٌ لتخليص الإنسانية ، من شقاء الحياة وجحيمها المستعر . . وكلُّ علمٍ شاط واحترق إلا « علم التفسير » فإنه لا يزال بحراً لُجّياً ، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه ، لاستخراج كنوزه الثمينة ، واستنباط روائعه وأسراره ، ولا يزال العلماء يقفون عند ساحله ، يرتشفون من معينه الصافي ولا يرتوون . . ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علماً بكلام ربِّ العزة جلَّ وعلا ، وأن يدرك أسراره ، ودقائقه ، وإعجازه ! وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال ! !

إنه الكتاب المعجز ، الذي سيظل يمنح الإنسانية ، من علومه ومعارفه ، ومن أسراره وحِكَمِه ، ما يزيدهم إيماناً وإذعاناً بأنه « المعجزة الخالدة » للنبيّ العربي الأميّ محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وأنه تنزيل الحكيم الحميد .

وإذا كان المسلم قد اضطرته الدنيا ليشغل وقته في تحصيل معاشه ، وضاقت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة ، التي خدم بها أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ كتاب الله تعالى ، تبياناً وتفصيلاً لآياته ، وإظهاراً لبلاغته ، وإيضاحاً لإعجازه ، وإبرازاً لما حواه الكتاب المجيد من تشريع وتهذيب ، وأحكام وأخلاق ، وتربية وتوجيه . . فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس ، بأسلوب واضح ، وبيانٍ ناصع ، لا حشو فيه ولا تطويل ، ولا تعقيد ولا تكلف ، وأن يُبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان ، بما يتفق وروح العصر الحديث ، ويلبي حاجة الشباب المثقف ، المتعطش إلى التزود من علوم ومعارف القرآن الكريم .

ولم أجد تفسيراً لكتاب الله عز وجل ـ على ما وصفتُ ـ رغم الحاجة إليه ، وسؤال الناس عنه ، ورغبتهم فيه ، فعزمتُ على القيام بهذا العمل ، رغم ما فيه من مشقةٍ وتعب ، واحتياجه لوقتٍ لا يُتاح في هذا الزمان ، مستعيناً بالله الكريم ، متوكلاً عليه ، سائلاً إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب ، وأن يوفقني لإخراجه بشكلٍ يليق بكتاب الله تعالى ، يعين المسلم على فهم آيات القرآن ، والتزود من بيانه ، ما يزيده إيماناً ويقيناً ، ويدفعه إلى العمل الجادّ الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا .

وقد أسميت كتابي «صفوة التفاسير» وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصَّلة، مع الاختصار والترتيب ، والوضوح والبيان ، وكلي أملٌ أن يكون اسمه مطابقاً لمسمَّاه، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية ، بما يوضّح لها السبيل الأقوم ، والصراط المستقيم .

وقد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي :

أولاً : بين يدي السورة ، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية .

ثانياً : المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة .

ثالثاً : اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية .

رابعاً : سبب النزول .

خامساً : التفسير .

سادساً : البلاغة .

سابعاً : الفوائد واللطائف .

وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنوات ، أواصل فيه الليل بالنهار ، وما كنت أكتب شيئاً حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير الموثوقة ، مع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها ، وإنني أشكر المولى جلَّ وعلا أنْ سهَّل لي هذا العمل ، فقد كنت أشعر أنَّ الزمن يُطوى لي ، وكلُّ ذلك ببركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشرفني بجواره ، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين من هجرة سيد المرسلين .

والله تعالى أسأل أن يسدد خطاي ، ويجزل لي الثواب يوم المآب ، فما عملتُ إلا أملاً بنيل رضاه ، راجياً منه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، ويبقيه ذخراً لي يوم الدين ، وأرجو ممن قرأ فيه فاستفاد أن يخصني بدعوة صالحة تنفعني يوم المعاد ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

مكة المكرمة ـ غرة ذي الحجة ١٣٩٩ هـ



أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

تفسير الاستعاذة المعنى : أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان العاتي المتمرد ، أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أُمرت به ، وأحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله رب العالمين . . عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام من الليل ، استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه)[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير البسملة: المعنى : أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء ، مستعيناً به جلَّ وعلا في جميع أموري ، طالباً منه وحده العون ، فإنه الرب المعبود ذو الفضل والجود ، واسع الرحمة كثير التفضل والإحسان ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام .

تنبيه : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ افتتح الله بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة من سور القرآن ـ ما عدا سورة التوبة ـ ليرشد المسلمين إلى أن يبدءوا أعمالهم وأقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم ، التماساً لمعونته وتوفيقه ، ومخالفةً للوثنيّين الذين يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ، أو باسم الشعب ، أو باسم هبل .

قال الطبري : « إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيّه محمداً ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك لجميع خلقه سنّةً يستنّون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها فقول القائل : بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تالياً سورة ينبىء عن أن مراده : أقرأ بسم الله ، وكذلك سائر الأفعال »[2] .

---

(١) أخرجه أصحاب السنن . (٢) جامع البيان للطبري .

تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بين يدي السورة :

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجماع ، وتسمى « الفاتحة » لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول ، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم ، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال ، فهي تتناول أصول الدين وفروعه ، تتناول العقيدة ، والعبادة ، والتشريع ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بصفات الله الحسنى ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء ، والتوجه إليه جلَّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين ، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين ، وفيها الاخبار عن قصص الأمم السابقين ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه ، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف ، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمّى « أم الكتاب » لأنها جمعت مقاصده الأساسية .

فضلها : أ - روى الإمام أحمد في المسند أن « أبيَّ بن كعب » قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه) فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ .

ب - وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلّى : (لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبعُ المثاني والقُرآن العظيم الذي أوتيتُه) .

التسمية : تسمى « الفاتحة ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والشافية ، والوافية ، والكافية ، والأساس ، والحمد » وقد عدَّدها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة اثني عشر إسماً .

اللغة : ﴿الحمد﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقروناً بالمحبة وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر ، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿الله﴾ اسم علَم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره ، قال القرطبي : هذا الاسم ﴿الله﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، وهو اسم للموجود

الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه ﴿رب﴾ الربّ : مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي : « يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربَّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب »[١] والربُّ يطلق على عدة معان وهي « المالك ، والمصلح ، والمعبود ، والسيد المطاع » ﴿العالمين﴾ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرهط ، وهو يشمل : الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء ، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة ، وقد روعي في كل من ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن « فَعْلان » صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران ، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائم الإحسان .[٢]

قال الخطابي : الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمَّت المؤمن والكافر ، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ ، ﴿الدين﴾ الجزاء ومنه الحديث (كما تدين تُدان) أي كما تفعل تجُزى ﴿نعبد﴾ قال الزمخشري : العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولي أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى الخضوع[٣] ﴿الصراط﴾ الطريق وأصله بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قال الشاعر :

شحنّا أرضهم بالخيل حتى ... تركناهم أذلَّ من الصّراط

﴿المستقيم﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف ﴿آمين﴾ أي استجب دعاءنا وهي ليست من القرآن الكريم إجماعاً .

التفسير : علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي الحمد لله ، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم ، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد ، المتفرد بالخلق والإيجاد ، رب الإنس والجن والملائكة ، ورب السموات والأرضين ، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿الرحمن الرحيم﴾ أي الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام ، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين ، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مالك يوم الدين﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب ، المتصرف في يوم الدين تصرّف المالك في ملكه ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾ ﴿إيَّاكَ نعبد وإيَّاك نستعين﴾ أي نخصُّك يا ألله بالعبادة ، ونخصك بطلب الإعانة ، فلا نعبد أحداً سواك ، لك وحدك نذلُّ ونخضع ونستكين ونخشع ، وإيَّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك ، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم ، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ سواك ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم ، وثبتنا على الإسلام الذي

(١) القرطبي ١/١٣٣ . (٢) كشف المعاني تفسير ابن جماعة . (٣) الكشاف ١/١١ .

بعثت به أنبياءك ورسلك ، وأرسلت به خاتم المرسلين ، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي طريق من تفضّلت عليهم بالجود والإنعام ، من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي لا تجعلنا يا ألله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم ، السالكين غير المنهج القويم ، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين ، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية ، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية . اللهم آمين .

البَــلاَغَــة : ﴿الحمد لله﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنىً أي قولوا « الحمد لله » وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم : الكرم في العرب . ٢ ـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال : إيّاه نعبد ، وتقديم المفعول يفيد القصر أي لا نعبد سواك كما في قوله ﴿وإيّاي فارهبون﴾ ٣ ـ قال في البحر المحيط : وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع :

الأول : حسن الافتتاح وبراعة المطلع .

الثاني : المبالغة في الثناء لإفادة « أل » الاستغراق .

الثالث : تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله .

الرابع : الاختصاص في قوله ﴿للّه﴾ .

الخامس : الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غير المغضوب عليهم﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين .

السادس : التقديم والتأخير في ﴿إيّاك نعبد﴾ .

السابع : التصريح بعد الإبهام ﴿الصراط المستقيم﴾ ثم فسره بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ .

الثامن : الالتفات في ﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين﴾ .

التاسع : طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿إهدنا الصراط﴾ أي ثبتنا عليه .

العاشر : السجع المتوازي في قوله ﴿الرحمن الرحيم * الصراط المستقيم﴾ وقوله ﴿نستعين * * الضّالين﴾ .[١]

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٣١ .

الفـوائـد : الأولى : الفرق بين ﴿الله﴾ و﴿الإله﴾ أن الأول اسم علـم للـذات المقدسة ذات الباري جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحق أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره .

الثانية : وردت الصيغة بلفظ الجمع « نعبد ونستعين » ولم يقل « إياك أعبد وإياك أستعين » بصيغة المفرد وذلك للإعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول : أنا يا رب العبد الحقير الذليل ، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي ، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

الثالثة : نسبَ النعمة إلى الله عز وجل ﴿أنعمت عليهم﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل : غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى ، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديراً « الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك » .

خاتمة
في بيان الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب العزيز

يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة « مقدمة في التفسير » ما نصه : « لا شك أن من تدبَّر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها ، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه ، ويضيء جوانب قلبه ، فهو يبتدىء ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله ، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء ، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿الرحمن الرحيم﴾ وذكّره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله ، وجميل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرتـه في هذا المحيط الذي لا ساحل له ، ثمّ تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ، ليست عن رغبة ولا رهبة ، ولكنها عن تفضل ورحمة ، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ « العدل » ويذكّر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيُدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾ فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة ، والترهيب بالعدالة والحساب﴿مالك يوم الدين﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير ، والبحث عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم ، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله ﴿إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه ، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء ، والنكوص بعد الاهتداء ، وغير الضالين التائهين ، الذي يضلون عن الحق أو يـريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثـور عليه ، آمين . ولا جرم أن « آمين » براعة مقطع في غاية الجمال والحسن ، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة

الكتاب ، والتوجه إلى الله بالدعاء ؟ فهل رأيت تناسقاً أدق ، أو ارتباطاً أوثق ، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة ؟ وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل . .) الحديث وأدم هذا التدبر والإنعام ، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل ، وخشوع وتذلّل ، وأن تقف على رؤوس الآيات ، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات ، من غير تكلف ولا تطريب ، واشتغال بالألفاظ عن المعاني ، فإن ذلك يعين على الفهم ، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شيء أفضلُ من تلاوة في تدبرٍ وخشوعٍ »[1] .

« انتهى تفسير سورة الفاتحة »

* * *

(١) مقدمة في التفسير ص ٥٩ .



سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف ، وهي من أوائل ما نزل ، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة البقرة من أطول سور القرآن على الإطلاق ، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع ، شأنها كشأن سائر السور المدنية ، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية .

* اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية : في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، وفي أمور الزواج ، والطلاق ، والعدة ، وغيرها من الأحكام الشرعية .

* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، فوضّحت حقيقة الإيمان ، وحقيقة الكفر والنفاق ، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء .

* ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب ، وبوجه خاص بني إسرائيل « اليهود » لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون ، مما يوضح عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة ، بدءاً من قوله تعالى﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم ﴾ . إلى قوله تعالى﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ رَبُّه بكلماتٍ فأتمهنَّ ﴾ .

* وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » وهم في أمسّ الحاجة إلى المنهاج الرباني ، والتشريع السماوي ، الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات ، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي ، وهو باختصار كما يلي :

« أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل ، أحكام الحج والعمرة ، أحكام الجهاد في سبيل الله ، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج ، والطلاق ، والرضاع ، والعدة ، تحريم نكاح المشركات ، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة ، لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر» .

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن « جريمة الربا » التي تهدّد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه ، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين ، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه ﴿يا أيها الذين آمنو اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تُبْتُم فَلَكُم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون﴾ .

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب ، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وآخر وحي تنزَّل من السماء إلى الأرض ، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي ، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، بعد أن أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة .

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة ، والتضرع إلى الله جلَّ وعلا برفع الأغلال والآصار ، وطلب النصرة على الكفار ، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين ، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام ، ويلتئم شمل السورة أفضل التئام ! !

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة ، التي ظهرت في زمن موسى الكليم ، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهاناً على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت ، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله .

فضلها : عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) أخرجه مسلم والترمذي . وقال ﷺ : (اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة) يعني السحرة . رواه مسلم في صحيحه .

قال الله تعالى ﴿الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه . . إلى . . وأولئك هم المفلحون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٥).

اللغة : ﴿ريب﴾ الرَّيْبُ : الشك وعدم الطمأنينة يقال : ارتاب ، وأمرٌ مريب إذا كان فيه شك وريبة قال الزمخشري : الريبُ مصدر رَابَه إذا أحدث له الريبة وهي قلقُ النفس واضطرابها ، ومنه

ريب الزّمان لنوائبه[1] ﴿المتقين﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه قال النابغة :

سَقَطَ النَّصيفُ ولـمْ تُرِد إسقاطَه فتنَاولَتْـه واتَّقَتْنَا باليَـدِ

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها ، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته ، وجماعُ التقوى أن يمتثل العبد الأوامر ويجتنب النواهي ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ، وكل شيء مستور فهو غيب كالجنة والنار ، والحشر والنشر قال الراغب : الغيبُ ما لا يقع تحت الحواس[2] ﴿المفلحون﴾ الفلاح : الفوز والنجاح قال أبو عبيدة : كُلٌّ من أصاب شيئاً من الخير فهو مفلح[3] وقال البيضاوي : المفلح : الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر[4] ، وأصل الفلح في اللغة : الشَّقُ والقطع ومنه قولهم « إنَّ الحديد بالحديد يُفْلَح » أي يُشقُّ ، ولذلك سمي الفلاح لأنه يشق الأرض بالحراثة ﴿كفروا﴾ الكفر لغةً : ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يجحد النعمة ويسترها ، ومنه قيل للزارع وللليل كافر قال تعالى ﴿أَعْجَبَ الكفار نباتُه﴾ أي أعجب الزُّرَّاع ، وسُمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿أنذرتهم﴾ الإنذار : الإعلام مع التخويف فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار لا إنذار ﴿ختم﴾ الختم : التغطية على الشيء والطبعُ عليه حتى لا يدخله شيء ، ومنه خَتْمُ الكتاب . ﴿غشاوة﴾ الغشاوة : الغطاء من غَشَّاه إذا غطاه ، ومنه الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الناسَ بأهوالها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

التفسير : ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين ، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الٓم﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظٌ غير مألوفة في تخاطبهم ، فينتبهوا إلى ما يُلقى إليهم من آياتٍ بينات ، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على « إعجاز القرآن » فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين ، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الإمام « ابن تيمية » ثم قال : ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف ،

(١) الكشاف ١/ ٢٧ (٢) مفردات القرآن للراغب (٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة/ ٢٩ (٤) البيضاوي ١/ ١٠

فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿الٓمٓ * ذلك الكتاب﴾ ﴿الٓمٓصٓ * كتابٌ أُنزل إليك﴾ ﴿الٓر * تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ﴿حمٓ * والكتابُ المبين * إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن .[1] ثم قال تعالى ﴿ذلك الكتابُ لا ريب فيه﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتابُ الذي لا يدانيه كتاب ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هدىً للمتقين﴾ أي هادٍ للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، قال ابن عباس : المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، وقال الحسن البصري : اتقوا ما حُرِّم عليهم ، وأدَّوْا ما افتُرِض عليهم . . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث ، والجنة ، والنار ، والصراط ، والحساب ، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها ، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس : إقامتُها : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع[2] ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان ، والآية عامة تشمل الزكاة ، والصدقة ، وسائر النفقات ، وهذا اختيار ابن جرير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال ، قال ابن كثير : كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه ، والإنْفاقُ هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد ، فكلٌ من النفقات الواجبة ، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة[3] ﴿والذين يؤمنون بما أُنزل إليك﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وما أُنزل من قبلك﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك ، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا ، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ ، وجنةٍ ، ونار ، وحساب ، وميزان ، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة ، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم .

البـلاغـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز العقلي ﴿هدى للمتقين﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب ، والهادي في الحقيقة هو الله ربُّ العالمين ففيه مجاز عقلي .

٢ ـ الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذلك الكتابُ﴾ للإيذان بعلو شأنه ، وبعد مرتبته في الكمال ، فنُزِّل بُعْد المرتبة منزلة البعد الحسي .

٣ ـ تكرير الإشارة ﴿أولئك على هدى﴾ ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ للعناية بشأن المتقين ، وجيء بالضمير ﴿هم﴾ ليفيد الحصر كأنه قال : هم المفلحون لا غيرهم .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٧ . (٢) اقتبسنا التفسير من الطبري وابن كثير وتفسير الجلالين . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٠ .

٤ ـ التيئيس من إيمان الكفار ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فالجملة سيقت للتنبيه على غلوهم في الكفر والطغيان ، وعدم استعدادهم للإيمان ، ففيها تيئيس وإقناط من إيمانهم .

٥ ـ الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ شبَّه قلوبهم لتأبّيها عن الحق ، وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغشّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية [١] .

* * *

المناسبة : لما ذكر تعالى صفاتِ المؤمنين في الآيات السابقة ، أعقبها بذكر صفات الكافرين ، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين ، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار ، والتمييز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة « وبضدها تتميز الأشياء » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

التفسير : ﴿إنَّ الذين كفروا﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا برسالة محمد ﷺ ﴿سواءٌ عليهم﴾ أي يتساوى عندهم ﴿أأنذرتَهم أَمْ لم تُنْذِرهم﴾ أي سواءٌ أحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به ، فلا تطمع في إيمانهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له . . ثم بيَّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال ﴿ختم اللهُ على قلوبهم﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور ، ولا يُشرق فيها إيمان قال المفسرون : الختمُ التغطيةُ والطبعُ ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها ، فلا يكون للإيمان إليها مسلكٌ ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾[٢] ﴿وعلى سَمْعِهم وعلى أبصارهم غِشَاوَة﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون ، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطَّاة بحجب كثيفة ، لذلك يرون الحقَّ فلا يتبعونه ، ويسمعونه فلا يعونه قال أبو حيان : شبَّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحقّ ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، وذلك لأنها كانت ـ مع صحتها وقوة إدراكها ـ ممنوعة عن قبول الخير وسماعه ، وتلمح نوره ، وهذا بطريق الاستعارة[٣] ﴿ولهم عذابٌ عظيم﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديدٌ لا ينقطع ، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله .

* * *

(١) انظر تلخيص البيان للشريف الرضي ٣/١ والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥١ . (٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم ففيه تحقيق وتفصيل جميل . (٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥١ .

قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر . . . إلى .. إن الله على كل شيء قدير﴾ من آية (٨) إلى نهاية آية (٢٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين ، وأعقبها بذكر صفات الكافرين ، ذكر هنا « المنافقين » وهم الصنف الثالث ، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان ، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق ، وما يئول إليه حالهم من الهلاك والدمار .

اللغة : ﴿يُخادعون﴾ الخِداع : المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن ، وأصله الإخفاء ومنه سُمي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله ، وسُمي المِخْدع مِخْدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه ﴿مَرَض﴾ المرض : السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسياً كمرض الجسم ، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء ، قال ابن فارس : المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ ، أو نفاق ، أو تقصير في أمر ﴿تفسدوا﴾ الفساد : العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ، الضعيف الرأي ، القليل المعرفة ، بمواضع المنافع والمضار ، وأصل السَّفه : الخِفَّة ، والسفيه : الخفيف العقل قال علماء اللغة : السَّفه خفةٌ وسخافة رأي يقتضيان نقصان العقل ، والحِلْمُ يقابله[1] ﴿طغيانهم﴾ الطغيان : مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إنا لما طغى الماء﴾ أي ارتفع وعلا وجاوز حده ، والطاغية : الجبار العنيد ﴿يعمهون﴾ العَمَه : التحير والتردُّد في الشيء يقال : عَمِهَ يَعْمه فهو عَمِه قال رؤبة : « أعمى الهدى بالحائرين العُمَّه » قال الفخر الرازي : العَمَهُ مثل العمى ، إلا أن العَمَى عام في البصر والرأي ، والعَمَه في الرأي خاصة ، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه[2] ﴿اشتروا﴾ حقيقة الاشتراء : الاستبدال ، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب ، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء اشتراه قال الشاعر :

فإن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم ... فإني اشتريتُ الحلمَ بعدكِ بالجهل

﴿صمٌ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عميٌ﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿صيِّب﴾ الصيِّبُ : المطر الغزير مأخوذ من الصَّوْب وهو النزول بشدة قال الشاعر « سقتكِ روايا المُزْن حيثُ تصوب » ﴿الصواعق﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، مشتقة من الصَّعْق وهو شدة الصوت ﴿السَّماء﴾ السماء في اللغة : كلُّ ما علاكَ فأظلَّك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء ، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرضِ قومٍ ... رعيناه وإن كانوا غِضابا

(١) انظر تهذيب اللغة ، والصحاح ، والقاموس . (٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢ / ٧١ .

﴿يخطف﴾ الخَطْفُ : الأخذ بسرعة ومنه ﴿إلا من خطِف الخطفة﴾ وسُمي الطير خُطّافاً لسرعته ، والخاطف الذي يأخذ الشيء بسرعة شديدة .

سَبَبُ النّزول : قال ابن عباس : نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم « عبد الله بن أُبي ابن سلول ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس » كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون : إنّا لنجد في كتابنا نعته وصفته[1] .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

التفسير : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم صدَّقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿وباليوم الآخر﴾ أي وصدَّقنا بالبعث والنشور ﴿وما هم بمؤمنين﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين ، لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد ، وكلاماً دون تصديق قال البيضاوي : هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين ، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله ، لأنّهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً ، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم ، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم ، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان ، وضرب لهم الأمثال[2] ﴿يخُادعون اللهَ والذين آمنوا﴾ أي يعملون عمل المخادِع بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر ، يعتقدون ـ بجهلهم ـ أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين ، وما علموا أن الله لا يُخْدع لأنه لا تخفى عليه خافية قال ابن كثير : النفاق هو إظهار الخير ، وإسرارُ الشر وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار ،وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار ، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه ، وسرُّه علانيته ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه[3] ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسَهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وما يشعرون﴾ أي ولا يحُسّون بذلك ولا يفطنون إليه ، لتمادي غفلتهم ، وتكامل حماقتهم ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم ، وضلالاً فوق ضلالهم ، والجملةُ دعائية قال ابن أسلم : هذا مرضٌ في الدين ، وليس مرضاً في الجسد ، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجساً وشكاً[4] ﴿ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون﴾ أي ولهم عذابٌ مؤلمٌ بسبب كذبهم في دعوى الإيمان ، واستهزائهم بآيات الرحمن . . ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم ، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ أي وإذا قال

(١) تفسير الفخر الرازي ٢/ ٦١ . (٢) تفسير البيضاوي ١/ ١١ . (٣) و(٤) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣ .

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

لهم بعض المؤمنين : لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن ، والكفر والصدِّ عن سبيل الله قال ابن مسعود : الفسادُ في الأرض هو الكفرُ ، والعملُ بالمعصية ، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿قالوا إنما نحنُ مصلحون﴾ أي ليس شأننا الإفسادُ أبداً، وإنما نحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك قال البيضاوي : تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم ﴿أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً﴾ ولذلك ردَّ الله عليهم أبلغ ردٍّ بتصدير الجملة بحرفي التأكيد ﴿ألا﴾ المنبهة و﴿إنَّ﴾ المقررة ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل ، والاستدراك بعدم الشعور[١] فقال ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكنْ لا يشعرون﴾ أي ألاَ فانتبهوا أيها الناس ، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم ، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون ، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ أي وإذا قيل للمنافقين : آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء ، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال « صهيب ، وعمار ، وبلال » ناقصي العقل والتفكير ؟ ! قال البيضاوي : وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم ، أو لتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال[٢] ﴿ألا إنهم هم السفهاءُ ولكنْ لا يعلمون﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقاً ، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهاً بلا امتراء ، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . أكَّد ونَبَّه وحصر السفاهة فيهم ، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة ﴿وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم ، أهلِ الضلالِ والنفاق ﴿قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾ أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ، وإنما نستهزىء بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان ، قال تعالى رداً عليهم ﴿الله يستهزىء بهم﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال قال ابن عباس : يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله ﴿وأُملي لهم إن كيدي متين﴾ قال ابن كثير : هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه ، فاللفظ متفق والمعنى مختلف[٣] ، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ ومثل

(١) البيضاوي ١/ ١٢ . (٢) البيضاوي ١/ ١٢ . (٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان « المشاكلة » وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله :

قالوا اقترحْ شيئاً نُجِدْ لك طبخه قلتُ : اطبخوا لي جبةً وقميصاً

﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ﴾

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فالأول ظلم والثاني عدل ﴿وَيَمُدُّهُم فِي طُغْيانِهِم يَعْمَهُونَ﴾ أي ويزيدهم ـ بطريق الإمهال والترك ـ في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً ﴿أولئكَ الَّذينَ اشترَوُا الضَّلالةَ بالهُدَى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهُدى ﴿فما ربحتْ تجارتُهم﴾ أي ما ربحت صفقتُهم في هذه المعاوضة و البيع ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك ، لأنهم خسروا سعادة الدارين ، ثم ضرب تعالى مثلين وضَّح فيهما خسارتهم الفادحة فقال ﴿مثلُهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفىء بها ويستضيء ، فما اتقدت حتى انطفأت ، وتركته في ظلام دامس وخوفٍ شديد ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهبَ الله بنورهم﴾ أي فلما أنارتْ المكان الذي حوله فأبصر وأمِن ، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية ، فتلاشت النار وعُدم النور ﴿وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون﴾ أي وأبقاهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد ، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير : ضرب الله للمنافقين هذا المثل ، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله . . فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغيَّ على الرشد ، وفي هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير ، ولا يعرفون طريق النجاة[1] ﴿صمٌّ﴾ أي هم كالصُمِّ لا يسمعون خيراً ﴿بكمٌ﴾ أي كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عميٌ﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي لا يرجعون عمَّا هم فيه من الغي والضلال ، ثم ثنَّى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادةً في الكشف والايضاح فقال ﴿أو كصيّبٍ من السماء﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قومٍ أصابهم مطر شديد ، أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء ، مصحوبٍ بالبرق والرعد والصواعق ﴿فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ﴾ أي في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية ، ورعدٌ قاصف ، وبرقٌ خاطف ﴿يجْعلونَ أصَابِعَهمْ في آذَانِهِمْ من الصَّواعِقِ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق ، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حَذَرَ المَوْتِ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿واللَّهُ محيطٌ بالكَافِرين﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٦ .

مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾

محيط بهم بقدرته ، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه ، كما لا يفوتُ من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿يكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصارهُمْ﴾ أي يقارب البرقُ لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كلَّما أضاءَ لَهُم مَشَوْا فيه﴾ أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿وإذا أَظْلمَ عليْهِمْ قاموا﴾ أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم . . وفي هذا تصويرٌ لما هم فيه من غاية التحير والجهل ، فإذا صادفوا من البرق لمعة ـ مع خوفهم أن يخطف أبصارهم ـ انتهزوها فرصة فَخَطَوْا خطوات يسيرة ، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير ، وثبتوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي لو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم ، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿إن اللهَ على كل شيءٍ قدير﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء ، لا يعجزه أحدٌ في الأرض ولا في السماء،قال ابن جرير : إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر[1] .

البـلاغـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

أولاً : المبالغة في التكذيب لهم ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كان الأصل أن يقول : « وما آمنوا » ليطابق قوله « من يقول آمنا » ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين وأكده بالباء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم .

ثانياً : الاستعارة التمثيلية ﴿يُخادعون اللهَ﴾ شبَّه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعيةٍ تخادع سلطانها واستعير اسم المشبَّه به للمشبه بطريق الاستعارة .

ثالثاً : صيغة القصر ﴿إنما نحن مصلحون﴾ وهذا من نوع « قصر الموصوف على الصفة » أي نحن مصلحون ليس إلاَّ .

رابعاً : الكناية اللطيفة ﴿في قلوبهم مرض﴾ المرضُ في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق لأن المرض فسادٌ للبدن ، والنفاق فساد للقلب .

خامساً : تنويع التأكيد ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ جاءت الجملة مؤكدة بأربع تأكيدات ﴿ألاَ﴾ التي تفيد التنبيه ، و﴿إنَّ﴾ التي هي للتأكيد ، وضمير الفصل ﴿هم﴾ ثم تعريف الخبر ﴿المفسدون﴾ ومثلها في التأكيد ﴿ألاَ إنهم هم السفهاء﴾ وهذا ردٌّ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٍّ وأحكمه .

(١) تفسير الطبري ١/ ٧٩

سادساً : المشاكلة ﴿الله يستهزىء بهم﴾ سمَّى الجزاء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى .

سابعاً : الاستعارة التصريحية ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ المراد استبدلوا الغيَّ بالرشاد ، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا[1] .

ثامناً : التشبيه التمثيلي ﴿مثلُهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ وكذلك في ﴿أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، وفي المثال الثاني شبَّه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء ، وشبَّه شبهات الكفار بالظلمات ، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق . . الخ[2]

تاسعاً : التشبيه البليغ ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ﴾ أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

عاشراً : المجاز المرسل ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء أي رؤوس أصابعهم لأن دخول الأصبع كلها في الأذن لا يمكن .

الحادي عشر : توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ، وهذا له وقع في الأذن حسن ، وأثر في النفس رائع مثل ﴿لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ ﴿إنما نحن مصلحون﴾ ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية[3] .

الفـــوَائِـــد : الأولى : الغاية من ضرب المثل : تقريب البعيد ، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس ، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ .

الثانية : وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب ، الخداع ، المكر ، السَّفه ، الاستهـزاء ، الإفسـاد في الأرض ، الجهـل ، الضلال ، التذبذب ، السخرية بالمؤمنين) أعاذنا الله من صفات المنافقين .

---

(١) قال الزمخشري : وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا انظر الكشاف ١/ ٣٥ .

(٢) قال الفخر الرازي : والتشبيه ههنا في غاية الصحة ، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً ، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور ، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لخسران نفسه أبد الآبدين . الرازي ٢/ ٧٣ (٣) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر ، ليتذوق القارىء بعض روائع القرآن ، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ، والصور البلاغية ، ما يتذوقه الإنسان ويعجز عن وصفه اللسان .

الثالثة : حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان بعضهم ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال لعمر : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه)[١] .

لطيفة : قال العلامة ابن القيم : تأمل قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل : « ذهب الله بنارهم » مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿استوقد ناراً﴾ فإن النار فيها إشراقٌ وإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو « النور » وأبقى ما فيها من الإحراق وهو « النارية » ! ! وتأمل كيف قال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بضوئهم ، لأن الضوء زيادةٌ في النور ، فلو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقطدون الأصل ! ! وتأمل كيف قال ﴿ذهب الله بنورهم﴾ فوحَّد النور ثم قال ﴿وتركهم في ظلمات﴾ فجمعها ، فإن الحقَّ واحد هو صراط الله المستقيم ، الذي لا صراط يوصل سواه ، بخلاف طُرُق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة ، ولهذا أفرد سبحانه « الحقَّ » وجمع « الباطل » في آياتٍ عديدة مثل قوله تعالى ﴿يخرجونهم من الظلمات إلى النور﴾ وقوله ﴿وجعلَ الظلماتِ والنور﴾ وقوله ﴿وأَنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السبُلَ فَتَفَرق بكم عن سبيله﴾ فجمع سبل الباطل ووحَّد سبيل الحق[٢] .

* * *

قال الله تعالى :﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم . . . إلى .. وهم فيها خالدون﴾
من آية (٢١) إلى نهاية آية (٢٥) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة « المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين » وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة ، أو إيمان أو نفاق ، وضرب الأمثال ووضَّح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين ، وعَرَّف الناس بنعمه ليشكروه عليها ، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يا أيها الناس﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتناً عليهم بما خلق ورزق ، وأبرز لهم « معجزة القرآن » بأنصع بيان وأوضح برهان ،ليقتلع من القلوب جذور الشك والارتياب .

اللغة : ﴿خلقكم﴾ الخلق : الإيجاد والاختراع بلا مثال ، وأصله في اللغة التقدير يقال : خلَق النعل إذا قدَّرها وسوَّاها بالمقياس ، وخلق الأديمَ للسقاء إذا قدَّره قال الحجاج « ما خلقتُ إلا فريتُ ، ولا وعدتُ إلا وفيتُ » أي ما قدرت شيئاً إلا أمضيته ، ولا وعدت بشيء إلا وفيت به . ﴿فراشاً﴾ الفراش : الوطاءُ والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام ﴿بناءً﴾ البناء : ما يُبنى من قبةٍ أو خباءٍ أو بيت ﴿أنداداً﴾ جمع نِدّ وهو الكفء والمثيل والنظير ومنه قول علماء التوحيد « ليس للّهِ نِدٌّ ولا ضِدّ » قال حسان :

أتهجوه ولستَ له بندٍّ فشرُّكما لخيركما الفِداء[٣]

(١) ذكرها ابن كثير كذا في المختصر ١/ ٣٣ (٢) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي . (٣) القرطبي ١/ ٢٣٠ .

وقال الزمخشري : « النِدُّ : المثل ولا يقـال إلا للمخالف المناوىء قال جرير : أتيماً تجعلون إليَّ نداً ؟»[١] ﴿وقودها﴾ الوَقود : الحطب الذي توقد به النار قال القرطبي : الوَقود بالفتح الحطب ، وبالضم مصدر بمعنى التوقد[٢] ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيئت ، وأعددنا هيأنا قال البيضاوي : ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيِّئت لهم وجُعلت عُدَّة لعذابهم[٣] ﴿وبشر﴾ البشارة : الخبر السارُّ الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور ، وإذا استعمل في الشر فهو تهكم مثل ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾ ﴿أزواج﴾ جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ﴿اسكنْ أنتَ وزوجك الجنة﴾ فالمرأة زوج الرجل ، والرجل زوج المرأة قال الأصمعي : لا تكاد العرب تقول زوجة ﴿خالدون﴾ باقون دائمون .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا

التفسير : يقول تعالى منبهاً العبادَ إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يا أيها الناسُ اعبدوا ربكم﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نِعَم الله الجليلة عليكم ، واعبدوا الله ربكم الذي ربَّاكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، اعبدوه بتوحيده ، وشكره ، وطاعته ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم ، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين ، الفائزين بالهدى والفلاح قال البيضاوي : لما عدَّد تعالى فِرَق المكلفين ، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات ، هزاً للسامع ، وتنشيطاً له ، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها ، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يا أيها﴾ لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد ، وكلُّ ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها ، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ[٤] ، ثمَّ عدَّد تعالى نِعَمه عليهم فقال ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي جعلها مهاداً وقراراً ، تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها ، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها قال البيضاوي : جعلها مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط ، وذلك لا يستدعي كونها مسطَّحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها[٥] ﴿والسماءَ بناء﴾ أي سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة ﴿وأنزلَ من السَّماءِ ماءً﴾ أي مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته من السحاب ﴿فأخرجَ بِهِ من الثَّمراتِ رِزْقاً لكم﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿فلا تجْعَلوا لِلَّهِ أنداداً وأنْتُمْ تَعْلمون﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة ، وأنتم تعلمون أنها لا تَخْلُق شيئاً ولا تَرْزق ، وأنَّ الله هو الخالق الرازق وحده ، ذو القوة المتين قال ابن كثير : شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على

(١) الكشاف ١/ ٧٢ . (٢) القرطبي ١/ ٢٣٨ . (٣) البيضاوي ١/ ١٨ (٤) البيضاوي ١/ ١٦ .

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة ورأيُ الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور روَّادُ الفضاء حولها في هذا العصر .

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٤﴾

عبيده بإخراجهم من العدم ، وإسباغه عليهم النِّعَم ، والمرادُ بالسَّماء هنا السحاب ، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم ، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره[1] . ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة ، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال ﴿وإن كنتم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدنا﴾ أي وإذا كنتم أيها الناسُ في شك وارتياب من صدق هذا القرآن ، المعجز في بيانه ، وتشريعه ، ونظمه ، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمدﷺ ﴿فأتوا بسورةٍ من مثله﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن ، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وادعوا شهداءكم من دونِ الله﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه ، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى قال البيضاوي : المعنى أُدعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنِكم وآلهتكم غيرَ اللهِ سُبحانه وتعالى ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله[2] ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر ، وجوابُه محذوف دلَّ عليه ما قبله ﴿فإن لم تفعلوا﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورةٍ من سوره ، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿ولن تفعلوا﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله ، والجملةُ اعتراضيةٌ للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾ أي معيناً قال ابن كثير : تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا ، و﴿لن﴾ لنفي التأبيد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ، غير خائفٍ ولا مشفق أنَّ هذا القرآن لا يُعارضُ بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ومن تدبّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيثُ اللفظ ومن حيثُ المعنى ، والقرآنُ جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب ، ويفهم تصاريف الكلام[3] ﴿فاتقوا النار﴾ أي فخافوا عذاب الله ، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿التي وَقودُها الناسُ والحجارةُ﴾ أي اتقوا النار التي مادتُها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم﴾ قال مجاهد : حجارةٌ من كبريت أنتَن من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿أُعِدَّتْ للكافرين﴾ أي هُيِّئت تلك النارُ وأُرصدت للكافرين الجاحدين ، ينالون فيها ألوان العذاب المهين .

ثم لما ذكر ما أعدَّه لأعدائه ، عطف عليه بذكر ما أعدَّه لأوليائه ، على طريقة القرآن في الجمع بين

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨ . (٢) البيضاوي ١/ ١٧ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤١ .

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الترغيب والترهيب ، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وبَشِّرْ يا محمد المؤمنين المتقين ، الذين كانوا في الدنيا محسنين ، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بأن لهم حدائق وبساتين ذاتِ أشجار ومساكن ، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة[1] ﴿ كُلَّما رُزِقوا منها من ثَمَرةٍ رِزْقاً﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورُزقوا رزقاً من ثمار الجنة ﴿قالوا هذَا الَّذي رُزِقْنا من قبلُ﴾ أي هذا مثلُ الطعام الذي قُدِّم إلينا قبل هذه المرة قال المفسرون : إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها ، تأتيهم به الملائكة ، فإذا قُدِّم لهم مرةً ثانية قالوا : هذا الذي أتيتمونا به من قبلِ فتقول الملائكة : كلْ يا عبد الله فاللونُ واحدٌ والطعم مختلف[2] قال تعالى ﴿وأُتوا به متشابهاً﴾ أي متشابهاً في الشكل والمنظر ، لا في الطعم والمَخْبر قال ابن جرير : يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم قال ابن عباس : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿ولهم فيها أزواج مطهَّرة﴾ أي ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية قال ابن عباس : مطهَّرة من القذر والأذى وقال مجاهد : مطهَّرة من الحيض والنفاس ، والغائط والبول والنخام ، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى ﴿إنّا أنْشأْناهُنَّ إنْشاءً فجعلناهُنَّ أبكاراً * عُرُباً أتْراباً﴾ ﴿وهم فيها خالدون﴾ أي دائمون ، وهذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين ، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالد لا يعتريه انقطاع .

البَلاَغَة : ١ ـ ذكر الربوبية ﴿اعبدوا ربكم﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم .

٢ ـ الإضافة ﴿على عبدنا﴾ للتشريف والتخصيص ، وهذا أشرف وصفٍ لرسول الله ﷺ .

٣ ـ التعجيز ﴿فأتوا بسورة﴾ خرج الأمر عن صيغته إلى معنى التعجيز ، وتنكيرُ السورة لإرادة العموم والشمول .

٤ ـ المقابلة اللطيفة ﴿جعل لكم الأرضَ فراشاً ، والسَّماء بناءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء ، والفراش والبناء ، وهذا من المحسنات البديعية .

٥ ـ الجملة الاعتراضية ﴿ولن تفعلوا﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان .

---

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أُخدود .

(٢) ذهب بعض المفسرين الى أن معنى قوله ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي في الدنيا ، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

٦ ـ الايجاز البديع بذكر الكناية ﴿فاتقوا النـار﴾ أي فإن عجزتـم فخافـوا نار جهنـم بتصديقكم بالقرآن .

* * *

قال الله تعالى ﴿إن اللّه لايستحيي أن يضرب مثلاً . . إلى . . وهو بكل شيء عليم﴾
من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٢٩).

المنَـاسَـبَة : لمّا بيّن تعالى بالدليل الساطع ، والبرهان القاطع ، أن القرآن كلام الله لا يتطرأ إليه شك ، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين ، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورةٍ من أقصر سوره ، ذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحـل ، والذبـاب ، والعنكبـوت ، والنمل) الخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام ربّ الأرباب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة ، وردَّ عليهم بأنَّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه ، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حِكَمٍ بالغة .

اللغَـــة : ﴿لا يستحيي﴾ الحياء : تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم ، والمراد به هنا لازمه وهو الترك ، **قال الزمخشري** : أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها[١] ﴿فما فوقها﴾ فما دونها في الصغر ﴿الفاسقين﴾ أصل الفسق في كلام العرب : الخروج عن الشيء ، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه ، قال الفراء : الفاسق مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت ، ويسمى الفاسق فاسقاً لخروجه عن طاعة الله ، وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة[٢] . ﴿ينقضون﴾ النقض : فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناءٍ ، أو حبلٍ ، أو عهد قال تعالى ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها﴾ وقال ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فبنقضهـم الميثـاق ﴿عهـد﴾ العهد : المَوْثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال عهد إليه أي أوصاه ﴿الميثاق﴾ العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد . ﴿استوى﴾ الاستواء في الأصل : الاعتدال والاستقامة يقال : استوى العـود إذا قام واعتدل ، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصـداً مستـوياً ، وقـال ثعلـب : الاستـواء : الإقبـال على الشيء[٣] . ﴿فسواهن﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه: صيّـرهن.

سَبَبُ النّزول : لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه ، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، وما أراد بذكر هذه الاشياء الخسيسة ؟ فأنزل الله الآية[٤].

(١) الكشاف ج ١ ص ٨٥ . (٢) التفسير الكبير للرازي ج ٢ ص ١٤٧ .
(٣) الصاوي على الجلالين ج ١ ص ١٩ ، والكشاف ج ١ ص ٩٢ .
(٤) القرطبي ج ١ ص ٢٤٤ والصاوي ج ١ ص ١٧ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير : يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين **﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما﴾** أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيَّ مثلٍ كان ، بأي شيءٍ كان ، صغيراً كان أو كبيراً **﴿بعوضة فما فوقها﴾** أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر ، فكما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها **﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾** أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق ، لا يقول غير الحق ، وأن هذا المثل من عند الله **﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾** ؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون : ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ قال تعالى في الرد عليهم **﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾** أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به ، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به ، فيزيد أولئك ضلالة ، وهؤلاء هدىً **﴿وما يضل بهِ إلا الفاسقين﴾** أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله ، الجاحدين بآياته ، ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال **﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾** أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية ، من الإيمان بمحمدﷺ من بعد توكيده عليهم ، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله ، والتصديق بالرسل ، والعمل بالشرائع **﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾** من صلة الأرحام والقرابات ، واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء ، وقطع الأرحام ، وترك موالاة المؤمنين **﴿ويفسدون في الأرض﴾** بالمعاصي ، والفتن ، والمنع عن الإيمان ، وإثارة الشبهات حول القرآن **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** أي أولئك المذكورون ، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحةهم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فصاروا إلى النار المؤبدة **﴿كيف تكفرون بالله﴾** استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى كيف تجحدون الخالق ، وتنكرون الصانع **﴿وكنتم أمواتاً﴾** أي وقد كنتم في العدم نُطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات **﴿فأحياكم﴾** أي أخرجكم إلى الدنيا **﴿ثم يُميتكم﴾** عند انقضاء الآجال **﴿ثم يحييكم﴾** بالبعث من القبور **﴿ثم إليه ترجعون﴾** للحساب والجزاء يوم النشور . ثم ذكر تعالى برهاناً على البعث فقال **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾** أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها ، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق **﴿ثم**

استوى إلى السَّماء﴾ أي ثم وجّه إرادته إلى السماء ﴿فسواهن سبع سموات﴾ أي صيّرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي وهو عالم بكلّ ما خلق وذرأ ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك ـ وهي أعظم منكم ـ قادر على إعادتكم ؟ ! بلى إنه على كل شيء قدير .

البَلاَغَة : ١ ـ قوله ﴿لا يستحيي﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، المعنى : لا يترك فعبّر بالحياء عن الترك ، لأن الترك من ثمرات الحياء ، ومن استحيا من فعل شيء تركه[١] .

٢ ـ قوله ﴿ينقضون عهد الله﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالحبل ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقض على سبيل الاستعارة المكنية .

٣ ـ قوله ﴿كيف تكفرون بالله﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع ، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخاطبهم بصيغة الحضور ، وهو ضرب من ضروب البديع .

٤ ـ قوله ﴿عليم﴾ من صيغ المبالغة ، ومعناه الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ، قال أبو حيان : وصف تعالى نفسه بـ (عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة ، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علاّمة) ولا يجوز وصفه به تعالى[٢] .

الفَوَائِد : الأولى : قال الزمخشري : التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرضَ المطلوب ، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمراً تستدعيه حال المتمثّل له ، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحاً جلياً ، كيف تمثّل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثّل له بالظلمة ؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ليس أحقر منها وأقل ، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ وجعلت أقل من الذباب وأخسّ قدراً ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ والعجبُ منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور ، والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهم[٣] .

الثانية : قدّم الإضلال على الهداية ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوءهم ويفتّ في أعضادهم ، وأوثرت صيغة الاستقبال إيذاناً بالتجدد والاستمرار ، أفاده العلامة أبو السعود[٤] .

الثالثة : قال ابن جزي في التسهيل : وهذه الآية ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض ، وقوله تعالى ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ظاهره خلاف

(١) أفاده الزمخشري . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٣٦ . (٣) الكشاف ج ١ ص ٨٣ . (٤) إرشاد العقل السليم ج ١ ص ٦٠ .

ذلك ، والجواب من وجهين : أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض ، والآخر تكون ﴿ثمَّ﴾ لترتيب الأخبار[1] .

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة . . إلى . . وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾

من آية (٣٠) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسبة : لما امتنَّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعاً ، وأخرجهم من العدم إلى الوجود ، أتبع ذلك ببدء خلقهم ، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه ، بجعله خليفة ، وإسكانه دار الكرامة ، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع ، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء ، ولهذا ناسب أن يذكّرهم بذلك ، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم .

اللغة : ﴿إذ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره : اذكر حين أو اذكر وقت ، وقد يصرح بالمحذوف كقوله تعالى ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ قال المبرد : إذا جاء « إذْ » مع مستقبل كان معناه ماضياً نحو قوله ﴿وإذْ يمكر بك﴾ معناه إذْ مكروا ، وإذا جاء « إذا » مع الماضي كان معناه مستقبلاً كقوله ﴿فإذا جاءت الطامة﴾ و﴿إذا جاء نصر الله﴾ أي يجيء[2] . ﴿خليفة﴾ الخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، فعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة ، سمي خليفة لأنه مستخلف عن الله عز وجل في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ الآية ﴿يسفك﴾ السفك : الصب والإراقة ولا يستعمل إلا في الدم قال في المصباح : وسفك الدم : أراقه وبابه ضرب ﴿نسبّح﴾ التسبيح : تنزيه الله وتبرئته عن السوء[3] ، وأصله من السَّبْح وهو الجري والذهاب قال تعالى ﴿إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ فالْمُسَبِّح جارٍ في تنزيه الله تعالى ﴿ونقدّس﴾ التقديس : التطهير ومنه الأرض المقدسة ، وروح القدس ، وضده التنجيس ، وتقديس الله معناه : تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده (سبُّوحٌ قدُّوس ربُّ الملائكةِ والرُّوح) ﴿أنبئوني﴾ أخبروني والنبأ : الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة قال تعالى ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ ﴿وتبدون﴾ تظهرون ﴿تكتمون﴾ تخفون ومنه كتم العلم أي اخفاؤه .

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ج ١ ص ٤٣ . (٢) القرطبي ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) روى طلحة بن عبيد الله قال سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال : (هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء) القرطبي ج ١ ص ٢٧٦ .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التفسير : ﴿وإذْ قال ربك للملائكة﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام : كيف تستخلف هؤلاء ، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ أي يريق الدماء بالبغي والاعتداء ! ! ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك ﴿ونقدس لك﴾ أي نعظّم أمرك ونطهّر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون ﴿قال إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾ أي أعلم من المصالح ما هو خفيٌ عليكم، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾ أي أسماء المسمّيات كلها قال ابن عباس : علّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التبكيت ﴿فقال أنبئوني﴾ أي أخبروني ﴿بأسماء هؤلاء﴾ أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته . والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة ، وخصّه بالمعرفة التامة دونهم ، من معرفة الأسماء والأشياء ، والأجناس ، واللغات ، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا﴾ أي ننزهك يا ألله عن النقص ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه ﴿إنك أنت العليم﴾ أي الذي لا تخفى عليه خافية ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ أي أخبرهم بكل الأشياء ، وسمَّى كل شيء باسمه ، وذكر حكمته التي خلق لها ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ أي قال تعالى للملائكة : ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي ما تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾ أي تسرون من دعواكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم . رويَ أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة ، وقالوا : ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه[1] .

---

(١) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٥٢ وأبو السعود ح ١ ص ٦٩ .

البـلاغـة : ١ ـ التعرض بعنوان الربوبية ﴿وإذْ قال ربك﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿للملائكة﴾ للاهتمام بما قُدِّم ، والتشويق إلى ما أُخِّر .

٢ ـ الأمر في قوله تعالى ﴿أنبئوني﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت [١].

٣ ـ ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير : فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى .

٤ ـ ﴿ثم عرضهم﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور ، ولو لم يغلّب لقال ﴿ثم عرضها﴾ أو عرضهن .

٥ ـ إبراز الفعل في قوله ﴿إني أعلم غيب السموات﴾ ثم قال ﴿وأعلم ما تبدون﴾ للإهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ، ويسمى هذا بالإطناب .

٦ ـ تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ « الطباق » وذلك في كلمتي ﴿تبدون﴾ و﴿تكتمون﴾ .

الفـوائـد : الأولى : قال بعض العلماء : في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض ، تعليمٌ لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها .

الثانية : الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد ـ لا لافتقار الله ـ وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة ، ولا بواسطة مَلَك ، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر .

الثالثة : قال الحافظ ابن كثير : وقول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ الآية ليس هذا على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عين الحكمة في ذلك ، يقولون : ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ؟[٢] وقال في التسهيل : وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك ، وقيل : كان في الأرض جنٌ فأفسدوا ، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم ، فقاس الملائكة بني آدم عليهم[٣] .

الرابعة : سئل الشعبي : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرسٌ لم أشهده ؟ قال : ثم قرأتُ قوله تعالى : ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة ، فقلت : نعم[٤] .

(١) أفاده أبو السعود . (٢) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٤٩ . (٣) التسهيل لابن جزي ج ١ ص ٤٣ . (٤) محاسن التأويل ج ٢ ص ١٠٤ .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

المناسبة : أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصّ آدم عليه السلام بالخلافة ، كما خصّه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه ، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له ، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية آدم عليه السلام .

اللغة : ﴿اسجدوا﴾ أصل السجود : الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم ، وهو في اللغة : التذلل والخضوع،وفي الشرع : وضع الجبهة على الأرض ﴿إبليس﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي ، وقيل إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس ﴿أبى﴾ امتنع ، والإباء : الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿استكبر﴾ الاستكبار : التكبر والتعاظم في النفس ﴿رغداً﴾ واسعاً كثيراً لا عناء فيه ، والرغد : سعة العيش ، يقال : رغد عيش القوم إذا كانوا في رزقٍ واسع قال الشاعر :

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيشٍ رغد

﴿فأزلهما﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم يقال : زلت قدمه أي زلقت ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازاً يقال : زلّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه ، وأزله غيره : إذا سبّب له ذلك[1] ﴿مستقر﴾ موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فتلقّى﴾ التلقي في الأصل : الاستقبال تقول خرجنا نتلقى الحجيج أي نستقبلهم ، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول : تلقيت رسالة من فلان أي أخذتها وقبلتها ﴿فتاب﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع ، وإذا عديت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية ، وإذا عديت بعلى كان معناها قبول التوبة .

التفسير : ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾أي اذكر يامحمد لقومك حين قلنا للملائكة﴿اسجدوا لآدم﴾ أي

(١) مختصر الطبري ج ١ ص ٤٢ .

سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ أي سجدوا جميعاً له غير إبليس ﴿أبى واستكبر﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وكان من الكافرين﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وكلا منها رغداً﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً ﴿حيث شئتما﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة قال ابن عباس: هي الكرمة ﴿فتكونا من الظالمين﴾ أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي أوقعهما في الزلة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة، أما إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلهما من الجنة[1] ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي الشيطان عدوٌ لكم فكونوا أعداء له كقوله ﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً﴾ ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿ومتاع إلى حين﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ أي استقبل آدم دعواتٍ من ربه ألهمه إياها فدعاه بها وهذه الكلمات مفسّرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية ﴿فتاب عليه﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة، واسع الرحمة للعباد ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أنَّ إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة[2] ﴿فإما يأتينكم منّي هدى﴾ أي رسول أبعثه لكم، وكتاب أنزله عليكم ﴿فمن تبع هداي﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي هم مخلدون في الجحيم أعاذنا الله منها.

البَلاَغَة: أولاً: صيغة الجمع ﴿وإذ قلنا﴾ للتعظيم، وهي معطوفة على قوله ﴿وإذ قال ربك﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة.

ثانياً: أفادت الفاء في قوله ﴿فسجدوا﴾ أنهم سارعوا في الامتثال ولم يتبطوا فيه، وفي الآية إيجاز بالحذف أي فسجدوا له وكذلك ﴿أبى﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود.

ثالثاً: قوله ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿ولا تقربا﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذالنهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ فنهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

رابعاً: التعبير بقوله ﴿مما كانا فيه﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من النعيم أو

(١) (٢) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلى في تفسير الجلالين، والأول اختيار الطبري.

الجنة ، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبّر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مما كانا فيه﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه .

خامساً : ﴿التواب الرحيم﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة .

الفوائد : الأولى : كيف يصح السجود لغير الله ؟ والجواب أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاةٍ وعبادة ، قال الزمخشري : السجود لله تعالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم ، ويعقوب وأبناؤه ليوسف[1] .

الثانية : قال بعض العارفين : سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية ، ولا يحط عن رتبة الولاية ، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس ، ولم تسلبه رتبة الخلافة ، بل أجزل الله له في العطية فقال ﴿ثم اجتباه ربه﴾ وقال الشاعر :

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع[2]

الثالثة : هل كان إبليس من الملائكة ؟ الجواب : اختلف المفسرون على قولين : ذهب بعضهم إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ وقال آخرون : الاستثناء منقطع وإبليس من الجن وليس من الملائكة وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري ، قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين ، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية : ١ ـ الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ وإبليس قد عصى أمر ربه ٢ ـ الملائكة خلقت من نور وإبليس خلق من نار فطبيعتهما مختلفة ٣ ـ الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ ؟ ٤ ـ النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وكفى به حجة وبرهاناً[3] .

* * *

قال الله تعالى ﴿يا بني إسرائيل . . إلى . . واركعوا مع الراكعين﴾
من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٤٣).

المناسبة : من بداية هذه الآية إلى آية/ ١٤٢/ ورد الكلام عن بني إسرائيل ، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزءٍ كامل ، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود ، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبثٍ وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون ، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لمّا دعا البشر إلى عبادته وتوحيده ، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده ، ثم ذكّرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام ، دعا بني إسرائيل خصوصاً ـ وهم اليهود ـ إلى الإيمان بخاتم

(١) الكشاف ج ١ ص ٩٥ . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٤١ . (٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا « النبوة والأنبياء » .

الرسل وتصديقه فيما جاء به عن الله ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، وقد تفنّن في مخاطبتهم ، فتارة دعاهم بالملاطفة ، وتارة بالتخويف ، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم ، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية ، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل .

اللغــة : ﴿إسرائيل﴾ اسم أعجمي ومعناه : عبد الله وهو اسم ﴿يعقوب﴾ عليه السلام ، وقد صرَّح به في آل عمران ﴿إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه﴾ الآية ﴿أوفوا﴾ الوفاء : الإتيان بالشيء على التمام والكمال ، يقال أوفى ووفّى أي أداه وافياً تاماً . ﴿تلبسوا﴾ اللَّبْس : الخلط تقول العرب : لَبَسْتُ الشيء بالشيء خلطته ، والتبس به اختلطَ ، قال تعالى ﴿ولَلَبسْنا عليهم ما يلبسون﴾ وفي المصباح : لَبِسَ الثوب من باب تعب لُبْساً بضم اللام ، ولَبَسْتُ عليه الأمر لَبْساً من باب ضرب خلطته ، والتبس الأمر : أشكل . ﴿الزكاة﴾ مشتقة من زكا الزرع يزكو أي نما لأن إخراجها يجلب البركة ، أو هي من الزكاة أي الطهارة لأنها تطهر المال قال تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ الآية

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

التفسـير : ﴿يا بني إسرائيل﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وأوفوا بعهدي﴾ أي أدّوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿أوف بعهدكم﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿وإياي فارهبون﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ من القرآن العظيم ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿وإياي فاتقون﴾ أي خافون دون غيري ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه ، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿وتكتموا الحق﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه السلام ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة ، وصلوا مع المصلين بالجماعة ، أو مع أصحاب محمد عليه السلام .

البـلاغـة : أولاً : في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نعمتي﴾ إشارة إلى عظم قدرها ، وسعة

بِـرِّها ، وحسن موقعها لأن الإضافة تفيد التشريف كقوله ﴿بيت الله﴾ و﴿ناقة الله﴾ .

ثانياً :قوله﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ الشراء هنا ليس حقيقياً بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ .

ثالثاً : تكرير الحق في قوله ﴿تلبسوا الحق﴾ وقوله ﴿وتكتموا الحق﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد ويسمى هذا الإطناب أضعف من سواه .

رابعاً : قوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ هو من باب تسمية الكل باسم الجزء أي صلوا مع المصلين أطلق الركوع وأراد به الصلاة ففيه مجاز مرسل .

خامساً : ﴿وإيَّاي فارهبون﴾ و﴿إياي فاتقون﴾ يفيد الاختصاص .

فَـــائِـــدَة : قال بعض العارفين : عبيد النِّعم كثيرون ، وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكّر بني إسرائيل بنعمه عليهم ، حتى يعرفوا نعمة المنعم فقال ﴿اذكروا نعمتي﴾ وأما أمة محمدﷺ فقد ذكّرهم بالمنعم فقال ﴿فاذكروني أذكركم﴾ ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين .

* * *

قال الله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر . . إلى . . ولا هم ينصرون﴾

من آية (٤٤) إلى نهاية آية (٤٨).

اللغَـــة : ﴿بالبر﴾ البِرُّ : سعة الخير والمعروف ومنه البرُّ والبَرِّية للسعة ، وهـو اسـم جامع لأعمال الخير ، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما وفي الحديث (البرُّ لا يبلى والذنب لا ينسى) ﴿وتنسون﴾ : تتركون والنسيان يأتي بمعنى الترك كقوله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ وهو المراد هنا ويأتي بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة كقوله ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ ﴿تتلـون﴾ : تقـرءون وتدرسـون ﴿الخاشعين﴾ الخاشـع : المتواضع وأصله من الاستكانة والذل قال الزجاج : الخاشع الذي يُرى أثر الذل والخشوع عليه ، وخشعت الأصوات : سكنت[1] ﴿يظنون﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك ، وهو من الأضداد قال أبو عبيدة : العرب تقول لليقين ظنٌّ ، وللشك ظن[2] وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ومنه ﴿إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه﴾ ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾ ،﴿شفاعة﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع ضد الوتر ، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ولهذا سميت شفاعة ، فهي إذاً إظهارٌ لمنزلة الشفيع عند المشفّع ﴿عَدْل﴾ بفتح العين فداء وبكسرها معناه : المِثْل يقال : عِدْل وعديل للذي يماثلك .

(١)القرطبي ج ١ ص ٣٧٤ . (٢) مجاز القرآن ص ٣٩ .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات ذمٌ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه .

سبب النزول : نزلت هذه الآية في بعض علماء اليهود ، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا : اثبتوا على دين محمد فإنه حق ، فكانوا يأمرون الناس بالإيمان ولا يفعلونه[1] .

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

التفسير : يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ أي أتدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ أي حال كونكم تقرءون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه السلام ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم بيَّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات ، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال ﴿واستعينوا﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿بالصبر والصلاة﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية ، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿وإنها﴾ أي الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي شاقة وثقيلة ﴿إلا على الخاشعين﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿الذين يظنون﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك ﴿أنهم ملاقوا ربهم﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ أي معادهم إليه يوم الدين . ثم ذكّرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرة أخرى فقال ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وأني فضلتكم﴾ أي فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وجعلهم سادة وملوكاً ، وتفضيل الآباء شرفٌ للأبناء ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً من الحقوق ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله .

البلاغة : أولاً : ﴿أتأمرون﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقريع .

---

(١) الصاوي ج ١ ص ٢٦ والقرطبي ج ١ ص ٣٦٥ .

ثانياً : أتى بالمضارع ﴿أتأمرون﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث ، وعبّر عن ترك فعلهم بالنسيان﴿وتنسون أنفسكم﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال ، وعلقه بالأنفس توكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة ، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ من التبكيت والتقريع والتوبيخ .

ثالثاً : ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال ، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور ، فلما قال ﴿اذكروا نعمتي﴾ عمَّ جميع النعم فلما عطف ﴿وأني فضلتكم﴾ كان من باب عطف الخاص على العام .

رابعاً : ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتهويل أي يوماً شديد الهول ، وتنكير النفس ﴿نفسٌ عن نفسٍ﴾ ليفيد العموم والاقناط الكلي .

الفـوائـد : الفائدة الأولى : قال القرطبي : إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها وقد كان عليه السلام إذا حزبه (أغمّه) أمرٌ فَزِع إلى الصلاة ، وكان يقول : (أرحنا بها يا بلال) .

الثانية : قال علي كرم الله وجهه : « قصم ظهري رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك » ومن دعا غيره إلى الهدىٰ ولم يعمل به كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه قال الشاعر :

إبدأْ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظتَ ويقتدى ... بالرأي منك وينفع التعليم

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقَى حتّى كأنَّك ذو تُقَى ... وريحُ الخطايا من ثيابك تَسْطَع

وقال آخر :

وغيرُ تَقيٍّ يأمر النَّاسَ بالتُّقَى ... طَبيبٌ يداوي النَّاس وهُوَ عليل

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ نجيناكم من آلِ فرعون . . إلى . . إنه هو التواب الرحيم﴾ .

من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٥٤) :

المنَاسَبَة : لما قدّم تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً ، بيَّن بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ، ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر ، فكأنه قال : اذكروا نعمتي ، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون ، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر . . إلى آخره وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا لا كفرانه وعصيانه .

اللغـــة : ﴿آل فرعون﴾ أصل « آل » أهل ولذلك يصغّر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفاً ، وخُصّ استعماله بأولي الخطر والشأن كالملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام ، و﴿فرعون﴾ علمٌ لمن ملك العمالقة كقيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس ، ولعتو الفراعنة اشتقوا تفرعن إذا عتا وتجبر[1] ﴿يسومونكم﴾ يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه قال الطبري : يوردونكم ويذيقونكم . ﴿يستحيون﴾ يستبقون الإناث على قيد الحياة ﴿بلاء﴾ اختبار ومحنة ، ويستعمل في الخير والشر كما قال تعالى ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ ﴿فرقنا﴾ الفرق : الفصل والتمييز ومنه ﴿وقرآناً فرقناه﴾ أي فصلناه وميزناه بالبيان ﴿بارئكم﴾ الباري هو الخالق للشيء على غير مثال سابق ، والبرية : الخلق .

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

التفسيـــر : ﴿وإذْ نجيناكم﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿من آل فرعـون﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة ، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أنَّ النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿يسومونكم سوء العـذاب﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿يذبحون أبنـاءكم﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿ويستحيـون نساءكم﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيـم﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء ، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي اذكروا أيضاً إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ أي نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وأنتم تنظـرون﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿وإذ واعدنا موسى أربعيـن ليلـة﴾ أي وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ثم اتخذتم العجـل﴾ أي عبدتم العجل ﴿من بعـده﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿وأنتم ظالمـون﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ثم عفونـا عنكـم﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿مـن بعـد

---

(١) الكشاف ١/١٠٢ .

ذلـك﴾ أي من بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴿لعلكـم تشكـرون﴾ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وإذْ آتينـا موسى الكتـاب والفرقـان﴾ أي واذكروا نعمتي أيضاً حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴿لعلكـم تهتـدون﴾ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام .

ثم بَيَّـنَ تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعـدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿باتخاذكـم العجـل﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿فتوبوا إلـى بارئكـم﴾ أي توبوا إلى من خلقكم بريئاً من العيب والنقصان ﴿فاقتلـوا أنفسكـم﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ذلـكم﴾ أي القتل ﴿خير لكم عنـد بارئكـم﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿فتـاب عليكـم﴾ أي قبل توبتكم ﴿إنه هـو التواب الرحيـم﴾ أي عظيم المغفرة واسع التوبة .

البـَـلاَغـَـة : قال ابن جزي : ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يلـزمونهم به وهو استعارة من السَّوْم في البيع وفسَّرَ سوء العذاب بقوله ﴿يذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ ولذلك لم يعطفه هنا[١] .

ثانياً : التنكير في كل من ﴿بلاء﴾ و﴿عظيم﴾ للتفخيم والتهويل .

ثالثاً : صيغة المفاعلة في قوله ﴿وإذ واعدنا﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين ، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿وإذ وعدنا﴾ .

رابعاً : قال أبو السعود : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم﴾ التعرض بذكر الباريء للإشعار بـأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها ، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم ، الذي خلقهم بلطيف حكمته ، إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة[٢] .

الفـَـوَائـِـد : الأولى : العطف في قوله ﴿الكتاب والفرقان﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض ، لأن الكتاب هو التوراة والفرقان هو التوراة أيضاً وحسن العطف لكـون معناه أنه آتاه جامعاً بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل[٣] .

الثانية : سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر ، وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤيـاه فقالوا : يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك على يده ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل .

الثالثة : قال القشيري : من صبر في الله على قضاء الله ، عوّضه الله صحبة أوليائه ، هؤلاء بنو

(١) كتاب التسهيل ١/ ٤٧ . (٢) ابو السعود ١/ ٨١ . (٣) قاله الزجاج واختاره الزمخشري .

إسرائيل ، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه ، فجعل منهم أنبياء ، وجعل منهم ملوكاً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . إلى . . بما كانوا يفسقون﴾ من آية (٥٥) إلى نهاية آية (٥٩)

المناسبة : بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم، بيَّن لوناً من ألوان طغيانهم وجحودهم ، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم!!
قال الطبري : لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم كما قال تعالى ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ وقال لهم : صوموا وتطهروا وطهّروا ثيابكم ففعلوا ، وخرج بهم إلى « طور سيناء » فقالوا لموسى : اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال : أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه ، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[2]

اللغة : ﴿جهرة﴾ علانيةً ، وأصل الجهر : الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها ، تقول : رأيت الأمير جهاراً وجهرة أي غير مستتر بشيء ، وقال ابن عباس : جهرةً : عياناً . ﴿الصاعقة﴾ صيحة العذاب أو هي نار محرقة ﴿بعثناكم﴾ أحييناكم قال الطبري : وأصل البعث : إثارة الشيء من محله ﴿الغمام﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزناً ومعنى ، لأنها تغم السماء أي تسترها ، وكل مغطّى فهو مغموم ، وغُمَّ الهلال : إذا غطّاه الغيم فلم ير ﴿حطّة﴾ : مصدر من حطَّ عنا ذنوبنا[3] ، وهي كلمة استغفار ومعناها : اغفر خطايانا . ﴿رجزاً﴾ عذاباً ومنه ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ أي العذاب ﴿يفسقون﴾ الفسق : الخروج عن الطاعة وقد تقدم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

(١) البحر المحيط ١/ ١٩٤ . (٢) انظر مختصر ابن كثير ١/ ٦٦ . (٣) مجاز القرآن ١/ ٤١ .

التفسير : ﴿وإذ قلتم يا موسى﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿لن نؤمن لك﴾ أي لن نصدّق لك بأنَّ ما نسمعه كلام الله ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أي حتى نرى الله علانية ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي ما حلّ بكم ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة ، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت .

ثم ذكّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا﴾ فَعُوقِبُوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى : ﴿وظلّلنا عليكم الغمام﴾ أي ستر ناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظُلَّة ﴿وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوى﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواعٍ من الطعام والشراب من غير كدٍّ ولا تعب ، والمنُّ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه [1] ، والسلوى : طير يشبه السماني لذيذ الطعم [2] ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي أنهم كفروا هذه النعم الجليلة ، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم ، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وإذ قلنا ادخلواهذه القرية﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه ، ادخلوا بيت المقدس ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾ أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه ﴿وقولوا حطّة﴾ أي قولوا يا ربنا حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أي نمح ذنوبكم ونكفّر سيئاتكم ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي نزيد من أحسن إحساناً ، بالثواب العظيم ، والأجر الجزيل ﴿فبدّل الذين ظلموا﴾أي غيَّر الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني « أدبارهم » وقالوا على سبيل الاستهزاء : « حبة في شعيرة » وسخروا من أوامر الله ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء﴾ أي أنزلنا عليهم طاعوناً وبلاءً ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً .

البلاغة : أولاً : إنما قيَّد البعث بعد الموت ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي ، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم .

ثانياً : في الآية إيجاز بالحذف في قوله ﴿كلوا﴾ أي قلنا لهم كلوا وفي قوله ﴿وما ظلمونا﴾ تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك دل على هذا الحذف قوله ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

---

(١) هو قول الربيع بن أنس . (٢) قول جمهور المفسرين .

والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظلموا﴾ و﴿يظلمون﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر[١] .

ثالثاً : وضع الظاهر مكان الضمير في قوله ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ ولم يقل « فأنزلنا عليهم » لزيادة التقبيح والمبالغة في الذم والتقريع ، وتنكير ﴿رجزاً﴾ للتهويل والتفخيم[٢] .

تـنبيـه : قال الراغب : تخصيص قوله ﴿رجزاً من السماء﴾ هو أن العذاب ضربان : ضربٌ قد يمكن دفاعه وهو كل عذاب جاء على يد آدمي ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق ، وضربٌ لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله ﴿رجزاً من السماء﴾[٣]

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ استسقى موسى لقومه . . إلى .. ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

من آية (٦٠) إلى نهاية آية (٦٢) .

المنَـاسـبَة : لا تزال الآيات تعدّد النعم على بني إسرائيل ، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه ، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه ، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر ، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم ، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهـم جدول خاص ، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم ، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا .

اللغـــة : ﴿استسقى﴾ طلب السقيا لقومه لأن السين والتاء للطلب مثل : استنصر واستخبر قال أبو حيان : الاستسقاء : طلب الماء عند عدمه أو قلته ، ومفعوله محذوف أي استسقى موسى ربّه[٤] . ﴿فانفجرت﴾ الانفجار : الإنشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه ، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى ﴿فانبجست منه﴾ ، ﴿مشربهم﴾ جهة وموضع الشرب ﴿ تعثوا﴾ العيث : شدة الفساد ، يقال : عثِيَ يعثَى ، وعثًا يعثو إذا أفسد فهو عاثٍ[٥] ، قال الطبري : معناه تطغوا وأصلـه شدة الإفسـاد ﴿فومهـا﴾ الفوم : الثوم وقيل : الحنطة ﴿أتستبدلون﴾ الاستبدال : ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أدنى﴾ أخسُّ وأحقر يقال رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس ﴿الذلة﴾ الذل والهـوان والحقـارة ﴿والمسكنـة﴾ الفاقـة والخشوع مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿باءوا﴾ رجعوا وانصرفـوا قال الرازي : ولا يقـال باء إلا بشرّ ﴿يعتـدون﴾ الإعتـداء : تجـاوز الحـد في كل شيء واشتهـر في الظلـم والمعاصي .

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ٥٧ . (٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٨٣ . (٣) محاسن التأويل ٢/ ١٣٥ .
(٤) البحر المحيط ١/ ٢٢٦ . (٥) كذا في المصباح .

* وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

التفسير : ﴿وإذِ استسقى موسى لقومه﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ أي اضرب أيّ حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً﴾ أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم ﴿قد علم كل أُناسٍ مشربهم﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ أي قلنا لهم : كلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء ، من غير كدّ منكم ولا تعب ، بل هو من خالص إنعام الله ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد . ﴿وإذْ قلتم يا موسى﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المنّ والسلوى ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي على نوع واحدٍ من الطعام وهو المنّ والسلوى ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تُنْبت الأرض﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المنّ والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿من بقلها﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث ﴿وقثائها﴾ يعني القثّة التي تشبه الخيار ﴿وفومها﴾ أي الثوم ﴿وعدسها وبصلها﴾ أي العدس والبصل المعروفان ﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ أي قال لهم موسى منكراً عليهم : ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس ! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المنّ والسلوى ؟ ﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾ أي ادخلوا مصراً من الأمصار وبلداً من البلدان أيّاً كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء . .

ثم قال تعالى منبهاً على ضلالهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسّخط الشديد من الله ﴿ذلك﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسّخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحوداً واستكباراً ، وقتلهم رسل الله ظلماً وعدواناً

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم عَلى أحكام الله ثمَّ دعا تعالى أصحاب الملل والنحل « المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ، والصابئين » إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال ﴿إن الذين آمنوا﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿والذين هادوا﴾ اليهود أتباع موسى ﴿والنصارى﴾ أتباع عيسى ﴿والصابئين﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدَّق بالله ، وأيقن بالآخرة ﴿وعمل صالحاً﴾ أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة ، حين يخاف الكفار من العقاب ، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب .

البَلاَغَة : أولاً : في إضافة الرزق إلى الله تعالى ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ تعظيمٌ للمنَّة والإنعام وإيماء إلى أنه رزقٌ حاصلٌ من غير تعب ولا مشقة .

ثانياً : في التصريح بذكر الأرض ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ مبالغةٌ في تقبيح الفساد وقوله ﴿مفسدين﴾ حالٌ مؤكدة ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشتد عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبسٌ أو شك ، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله ﴿مفسدين﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة ، ويجعله بعيداً من أن يُغفل عنه أو يُنسى .

ثالثاً : قوله تعالى ﴿مما تنبت الأرض﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية لأن الأرض لما كانت سبباً للنبات أُسند إليها .

رابعاً : قوله ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ كناية[1] عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبَّة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى   في قبَّة ضربت على ابن الحشرج

خامساً : تقييد قتل الأنبياء بقوله ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق البتَّة إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانه .

الفَوَائِد : الأولى : حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في الحجر الذي ضربه موسى فجرت منه العيون ما هو ؟ وكيف وصفه ؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال والذي يكفي في فهم معنى الآية أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه « المعجزة » وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء ، وهنا تكون المعجزة أوضح ، والبرهان أسطع قال الحسن البصري : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة[2] .

---

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبّه على ذلك أبو السعود .   (٢) الكشاف ١/ ١٠٧ .

الثانية : فإن قيل ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً ؟ والجواب : أن قوم موسى كانوا كثيرين وكانوا في الصحراء ، والناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع ، فأكمل الله هذه النعمة بأن عيّن لكل سبط منهم ماءً معيناً على عددهم لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً ، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر والله أعلم .

الثالثة : ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفوم في قوله ﴿وفومها﴾ الحنطة والأرجح أن المراد به الثوم بدليل قراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾ وبدليل اقتران البصل بعده قال الفخر الرازي : الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة ، واستدل القرطبي على ذلك بقول حسان :

وأنتم أُنـاسٌ لئامُ الأصـول طعامكم الفوم والحوقل .

يعني الثوم والبصل[1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم . . إلى . . وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ .
من آية (٦٣) إلى نهاية آية (٦٦).

المنَاسَبَة : لمّا ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة ، أردف ذلك ببيان ما حلَّ بهم من نقم ، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، فقد كفروا النعمة ، ونقضوا الميثاق ، واعتدوا في السبت فمسخهم الله إلى قردة ، وهكذا شأن كل أمةٍ عتت عن أمر ربها وعصت رسله .

اللغَة : ﴿ميثاقكم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه ، والمراد به هنا العمل بأحكام التوراة ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بقوة﴾ بحزمٍ وعزم ﴿توليتم﴾ التولي : الإعراض عن الشيء والإدبار عنه ﴿خاسئين﴾ جمع خاسيء وهو الذليل المهين قال أهل اللغة : الخاسيء : الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له : إخسأ أي تباعد وانطرد صاغراً . ﴿نكالاً﴾ النكال : العقوبة الشديدة الزاجرة ولا يقال لكل عقوبة نكالٌ حتى تكون زاجرة رادعة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

(١) القرطبي ١/ ٤٢٥ .

التفسير : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجدٍّ وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ أي أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ أي بقبول التوبة ﴿ورحمته﴾ بالعفو عن الزلة ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً مع الذلة والإهانة ﴿فجعلناها﴾ أي المسخة ﴿نكالاً لما بين يديها﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وما خلفها﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها ، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿وموعظةً للمتقين﴾ أي عظةً وذكرى لكل عبدٍ صالحٍ متّقٍ لله سبحانه وتعالى .

البلاغة : أولاً : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول .

ثانياً : ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير ، وقال بعض المفسرين : هذا أمر تسخيرٍ وتكوين ، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة .[١]

ثالثاً : ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق ، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر .

الفوائد : الأولى : قال القفال : إنما قال ﴿ميثاقكم﴾ ولم يقل « مواثيقكم » لأنه أراد ميثاق كل واحدٍ منكم كقوله ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي يخرج كل واحدٍ منكم طفلاً .[٢]

الثانية : قال بعض أهل اللطائف : كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تخبط في عشواء حالكة الجلباب ، وتخطر من غلوائها وعلوّها في حلتي كبرٍ وإعجاب ، فلما أُمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبل فوجدوه أثقل مما كلِّفوه ، فهان عليهم حمل التوراة قال الشاعر :

إلى اللـه يُدعَى بالبراهينِ من أبى فإن لم يجُبْ نادته بيض الصوّارم[٣]

الثالثة : إنما خصَّ المتقين بإضافة الموعظة إليهم ﴿وموعظة للمتقين﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير قال تعالى ﴿وذكّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ .

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ٦٣ . (٢) البحر المحيط ١/ ٢٤٣ . (٣) البحر المحيط ١/ ٢٤٥ .

قال الله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه . . إلى . . وما الله بغافل عما تعملون﴾ من اية (٦٧) إلى نهاية اية (٧٤).

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم ، من نقض المواثيق ، واعتدائهم في السبت ، وتمردهم على الله عز وجل في تطبيق شريعته المنزلة ، أعقبه بذكر نوعٍ آخر من مساوئهم ألاوهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم ، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم ، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسل صلوات الله عليهم ، وجفاؤهم في مخاطبة نبيِّهم الكريم موسى عليه السلام ، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوىء .

اللغــة : ﴿هزواً﴾ الهزؤ : السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واواً ﴿هُزُواً﴾ مثل ﴿كُفُواً أحد﴾ والمعنى على حذف مضاف أي أأتخذنا موضع هزؤٍ ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءاً بنا ﴿ فارض﴾ الفارض : الهَرِمةُ المسنَّة التي كبرت وطعنت في السنِّ ، كذا في لسان العرب ﴿بكر﴾ البِكْرُ : الفتيَّة التي لم تلد من الصغر ، ولم يلقّحها الفحل لصغرها قال الشاعر :

لعمري لقد أعطيتَ ضيفكَ فارضاً ... تُساق إليه ما تقوم على رجل
ولم تعطه بكراً فيرضى سمينةً ... فكيف تجُازى بالمودة والفضل ؟[١]

﴿عوانٌ﴾ وسط ليست بمسنَّة ولا صغيرة ، وقيل هي التي ولدت بطناً أو بطنيْن ، ﴿فاقع﴾ الفقوع : شدة الصفرة يقال : أصفر فاقع أي شديد الصفرة كما يقال : أحمر قانٍ أي شديد الحمرة قال الطبري : وهو نظير النصوع في البياض ﴿ذلول﴾ أي مذلّلة للعمل يقال : دابة ذلول أي ريِّضة زالت صعوبتها فقوله ﴿لا ذلول﴾ أي لم تذلّل لإثارة الأرض أي لحرثها ﴿مسلّمة﴾ من السلامة أي خالصة ومبرأة من العيوب ﴿شية﴾ الشِّية : اللمعة المخالفة لبقية اللون الأصلي قال الطبري : ﴿لا شية فيها﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها[٢] ﴿فادّارأتم﴾ أي تدافعتم واختلفتم وتنازعتم وأصلها تدارأتم أدغمت التاء في الدال ، وأُتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن فصار ادّارأتم ، ومعنى الدرء : الدفع لأن كلاً من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع وفي الحديث (ادرءوا الحدود بالشبهات) ﴿قست﴾ القسوة : الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يشقق﴾ التشقق : التصدع بطولٍ أو عرض ﴿يهبط﴾ الهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل .

« معجزة إحياء الميت وقصة البقرة »

ذكر القصة : روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنُّهى : علام يقتل

(١) البحر المحيط ١/٢٤٨ . (٢) مختصر الطبري ١/٤٧ .

بعضنا بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قال : ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً ، فاشتروها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ قال : هذا وأشار على ابن أخيه ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد »[1] وفي رواية « فأخذوا الغلام فقتلوه » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

التفسير : ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قالوا أتتخذنا هزواً﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبيكم أن قلتم : أتهزأ بنا يا موسى ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ أي ألتجىء إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قالوا ادع لنا ربك يبيِّنْ لنا ما هي﴾ أي ما هي هذه البقرة وأي شيء صفتها ؟ ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أي لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عوانٌ بين ذلك﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم ﴿قالوا ادع لنا ربك يبينْ لنا ما لونها﴾ أي ما هو لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك ؟ ﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة ، حسن منظرها تسر كل من رآها . ﴿قالوا ادع لنا ربك يبيِّنْ لنا ما هي﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها ، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثيرٌ ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وإنَّا إن شاء الله لمهتدون﴾ أي سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله ، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً كما ثبت في الحديث ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض ، ولا لسقاية الزرع ﴿مسلَّمة لا شية فيها﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لونٌ آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس قال تعالى

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٧٦ .

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

إخباراً عنهم ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة ، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة ، فقال ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً ﴿فادارأتم فيها﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها ، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحيي الموتى من قبورهم ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير . ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال ﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ أي ومنها ما يتفتّت ويتردّى من رءوس الجبال من خشية الله. فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي أنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية ، وسيجازيهم عليها يوم القيامة ، وفي هذا وعيد وتهديد .

البلاغة : أولاً : قوله تعالى ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير : فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها ، فلما اهتدوا إليها ذبحوها وهذا من الإيجاز بالحذف .

ثانياً : قوله تعالى ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله ﴿فادارأتم﴾ وقوله ﴿فقلنا اضربوه﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصال تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسناً ، وفائدة

الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة .

ثالثاً : ﴿ثم قست قلوبكم﴾ وصف القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نبُوُّها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ ففيه استعارة تصريحية قال أبو السعود : القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لِنُبُوِّ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور(١) .

رابعاً : ﴿فهي كالحجارة﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلاً مجملاً) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف .

خامساً : ﴿لما يتفجر منه الأنهار﴾ أي ماء الأنهار ، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحال فيه كالماء والقرينة ظاهرة لأن التفجر إنما يكون للماء ويسمى هذا مجازاً مرسلاً .

الفـوائـد : الفائدة الأولى : نبه قوله تعالى ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ على أن الاستهزاء بأمرٍ من أمور الدين جهل كبير ، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل ، وقالوا إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح .

الثانية : الخطاب في قوله ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقوام ، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم ، راضين بفعلهم ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين .

الثالثة : هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة ، وإن وردت في الذكر بعده ، والسرُّ في ذلك التشويقُ إلى معرفة السبب في ذبح البقرة ، والتكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة أبو السعود: وإنما غُيِّر الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع ، فإن كل واحدٍ من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتيات على أمره جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم(٢) .

الرابعة : ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع : أ ـ في قوله ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ ب ـ وفي هذه القصة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ ج ـ وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿فقال لهم الله موتوا ثمَّ أحياهم﴾ د ـ وفي قصة عزير ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ هـ ـ وفي قصة إبراهيم ﴿ ربِّ أرني كيف تحيي الموتى﴾(٣)

الخامسة : ﴿ أوْ ﴾ في قوله تعالى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بمعنى « بَلْ » أي بل أشد قسوة كقوله تعالى ﴿وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون﴾ وقال بعضهم : هي للترديد ، أو التخيير فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد ، ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة أو قال : هي أقسى من الحجارة .

(١) (٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٩٠ . (٣) أفاده العلامة ابن كثير .

السادسة : ذهب بعض المفسِّرين إلى أن الخشية هنا حقيقية ، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ وقال آخرون : بل هو من باب المجاز كقول القائل : قال الحائط للمسمار لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني والله أعلم ؟

* * *

قال الله تعالى ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . . إلى . . فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ .

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٢) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى عناد اليهود ، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى ، ومجادلتهم للأنبياء الكرام ، وعدم الانقياد والإذعان ، عقَّب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحريف كلام الله تعالى ، وادعائهم بأنهم أحباب الله ، وأن النار لن تمسَّهم إلا بضعة أيام قليلة ، إلى آخر ما هم عليه من أماني كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وقد بدأ تعالى الآيات بتيئيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال ، وجبلوا على العناد والمكابرة .

اللغَة : ﴿أفتطمعون﴾ الطمع : تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقاً قوياً ، فإذا اشتد فهو طمع ، وإذا ضعف كان رجاءً ورغبةً ﴿فريق﴾ الفريق : الجماعةوهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم. ﴿يحرفونه﴾ التحريف : التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿عقلوه﴾ عقل الشيء أدركه بعقله والمراد فهموه وعرفوه ﴿أميون﴾ جمع أمي وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، سميٌ بذلك نسبة إلى الأم ، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿أمانيّ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه ، أو يقدِّره في نفسه من مُنى ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لإنسان : « أهذا شيء رأيته أم تمنيته » أي اختلقته ، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان : تمنّى كتاب الله أول ليلة ﴿فويل﴾ الويل : الهلاك والدمار وقيل : الفضيحة والخزي ، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القاضي : هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله ﴿ويل للمطففين﴾ وقال سيبويه : ويلٌ لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها .

سَبَبُ النّزول : ١ ـ نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوارٌ ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . .﴾[١] الآية .

٢ ـ وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نُعذب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة﴾[٢] .

---

(١) البحر المحيط ١/ ٢٧١ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٨٢ .

﴿* أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا﴾

التفسير : يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ أي يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل ، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم يرتكبون جريمة أي أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأٍ أو نسيان ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق . وأن محمداً هو الرسول المبشّر به ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ أي إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ﴿قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أتخبرون أصحاب محمد بما بيّن الله لكم في التوراة من صفة محمد عليه السلام ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟أي أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم ؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم قال تعالى رداً عليهم وتوبيخاً ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون ، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان ! !

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرّفوا وبدّلوا، ذكر العوام الذين قلدوهم ونبّه أنهم في الضلال سواء فقال : ﴿ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوامّ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿إلاّ أمانيّ﴾ أي إلاّ ما هم عليه من الأماني التي منّاهم بها أحبارهم ، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم ، بل هم مقلّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء . ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضلّين ، الذين أضلّوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة ، وكتبوا تلك الآيات المحرفة

يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

بأيديهم ﴿ثم يقولـون هـذا من عنـد اللـه﴾ أي يقولون لأتباعهم الأميين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً ﴿ليشتروا بـه ثمنـاً قليـلاً﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فويـل لهم ممّـا كتبت أيديهـم﴾ أي فشدة عذاب لهم.على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ أي لن ندخل النار إلا أياماً قلائل ،هي مدة عبادة العجل ، أو سبعة أيام فقط ﴿قـل اتخـذتم عنـد اللـه عهـداً﴾ أي قـل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ : هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك ؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فلـن يخلـف اللـه عهـده﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أم تقولو ن علـى الله ما لا تعلمـو ن﴾ أي أم تكـذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله ، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله ، والكذب والبهتان عليه جل وعلا .

ثم بيَّـن تعالى كذب اليهود ، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقـال : ﴿بلـى من كسـب سيئـة﴾ أي بلى تمسكم النار وتخلدون فيها ، كما يخلد الكافر الذي عمـل الكبائـر ، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وأحاطـت به خطيئتـه﴾ أي غمرته من جميع جوانبـه ، وسـدّت عليه مسالك النجاة ، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فأولئـك أصحـاب النار هم فيـها خالدون﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً ﴿والذيـن آمنوا وعملـوا الصالحـات﴾ أي وأما المؤ منون الذين جمعوا بين الإيمان ، والعمل الصالح فلا تمسهم النار ، بل هم في روضات الجنات يحبرو ن ﴿أولئـك أصحـاب الجنة هم فيـها خالـدون﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبداً ، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين .

البَـــلاَغَـــة : أولاً : قوله ﴿وهم يعلمون﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم ، فتحريفهم للتـوراة كان عـن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان ، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل .

ثانياً : قوله ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز ، وللتأكيد بأن الكتابة باشروها بأنفسهم كما يقول القائل : كتبته بيميني ، وسمعته بأذني .

ثالثاً : قوله ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ فيه من المحسّنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي « يسرون » و « يعلنون » وهو من نوع طباق الإيجاب .

رابعاً : التكرير في قوله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب﴾ وقوله ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ وقوله ﴿وويل لهم مما يكتبون﴾ للتوبيخ والتقريع ولبيان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى .

خامساً : قوله ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبّه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط به إحاطة السوار بالمعصم ، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات ، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات[1] .

الفوائد : الفائدة الأولى : تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلاً فاسداً ، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام ، وقد وقع من أحبار اليهود التحريف بالتأويل ، وبالتغيير ، كما فعلوا في صفته عليه السلام قال العلامة أبو السعود : روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها « حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض، ربعة » فغيّروها وكتبوا مكانها « طوال ، أزرق ، سبط الشعر » فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لما في التوراة فيكذبونه[2] .

الثانية : التحريف بقسميه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة ، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ .

الثالثة : روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمٌّ ، فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لي من كان من اليهود هنا ، فقال لهم رسول الله : مَنْ أبوكم ؟ قالوا : فلان قال : كذبتم بل أبوكم فلان فقالوا : صدقتَ وبررت ثم قال لهم : هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً ، ثم قال لهم رسول الله ﷺ : هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : هل جعلتم في هذه الشاة سماً ؟ فقالوا نعم قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك »[3] .

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . إلى . . ولا هم ينصرون﴾ .
من آية (٨٣) إلى نهاية آية (٨٦) .

(١) انظر تلخيص البيان ١/ ٨. (٢) تفسير أبي السعود ١/ ٩٤ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٨٢.

المناسَبَة : لا تزال الآيات الكريمة تعدّد جرائم اليهود ، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض ، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة ، وقتلوا النفس التي حرّم الله ، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل ، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار ، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار .

اللغَة : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد ، فإن لم يكن مؤكداً سمي عهداً ﴿حسناً﴾ الحُسْنُ : اسم عام جامعٌ لمعاني الخير ، ومنه لين القول ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم ، وضده القُبْح والمعنى : قولوا قولاً حُسْناً فهو صفة لمصدر محذوف ﴿توليتم﴾ التولّي عن الشيء: الإعراضُ عنه ورفضُه وعدم قبوله كقوله ﴿فأعرضْ عمن تولّى عن ذكرنا﴾ وفرّق بعضهم بين التولي والإعراض فقال : التولي بالجسم ، والإعراضُ بالقلب[١] ﴿تظاهرون﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين ، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره إلى الآخر ، والظهير : المعين ﴿الإثم﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿العدوان﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿خزي﴾ الخزي : الهوان والمقت والعقوبة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ﴾

التفسِير : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ﴿وذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء ، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار ، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وقولوا للناس حُسْناً﴾ أي قولاً حسناً بخفض الجناح ، ولين الجانب ، مع الكلام الطيّب ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي صلوا وزكّوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين « الصلاة ، والزكاة » لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ أي ثم رفضتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً ، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلاّ قليلاً منكم ثبتوا عليه ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾ أي واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار ، والإجلاء

(١) البحر المحيط ١ / ٢٨١ .

أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

عن الأوطان ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ أي ثمّ اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ أي ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به ، فقتلتم إخوانكم في الدين ، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق ﴿تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم ، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم ؟ ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ ؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض ؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان ، والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقّب تعالى ذلك بقوله ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان ، ومقتٌ وغضب في الدنيا ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشدّ منه ، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله . ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لا يُفتّر عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم ، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم .

تـنبيـه : كانت (بنو قريظة) و (بنو النضير) من اليهود ، فحالفت بنو قريظة الأوس ، وبنو النضير الخزرج ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال ، وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ولهذا قال تعالى ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾[١] .

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٨٥ .

البلاغة : ١ - ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ خبرٌ في معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إيهام أن المنهيَّ حقه أن يسارع إلى الانتهاء فكأنه انتهى عنه ،فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي[1] .

٢ - ﴿وقولوا للناس حُسناً﴾ وقع المصدر موقع الصفة أي قولاً حسناً أو ذا حسنٍ للمبالغة فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون : هو عدلٌ .

٣ - التنكير في قوله ﴿خزيٌ في الحياة الدنيا﴾ للتفخيم والتهويل .

٤ - ﴿تقتلون أنفسكم﴾ عبّر عن قتل الغير بقتل النفس لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة .

٥ - ﴿أفتؤ منون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي .

الفوائد : الفائدة الأولى : جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم ، فقدّم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على العباد ، ثم قدم ذكر الوالدين لحقهما الأعظم في تربية الولد ، ثم القرابة لأن فيهم صلة الرحم وأجر الإحسان ، ثم اليتامى لقلة حيلتهم ، ثمّ المساكين لضعفهم ومسكنتهم .

الثانية : ﴿وقولوا للناس حُسْناً﴾ ولم يقل : وقولوا لإخوانكم أو قولوا للمؤ منين حسناً ليدل على أنّ الأمر بالإحسان عامٌ لجميع الناس ، المؤ من و الكافر ، والبر والفاجر ، وفي هذا حضٌ على مكارم الأخلاق ، بلين الكلام ، وبسط الوجه ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم قال أحد الأدباء :

بُنـيَّ إنَّ البـرَّ شيءٌ هيّنُ وجهٌ طليقٌ ولسـانٌ ليّنُ

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل . . إلى . . ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾

من آية (٨٧) إلى نهاية آية (٩٢) .

اللغة : ﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿وقفينا﴾ أردفنا وأتبعنا وأصله من القفا يقال : قَفَاه إذا أتبعه ، وقفَّاه بكذا إذا أتبعه إياه ﴿البينات﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ﴿أيّدناه﴾ قويناه مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿روح القدس﴾ جبريل عليه السلام ، والقدسُ : الطهر والبركة ﴿تهوى﴾ تحب من هَوِي إذا أحب ومصدره الهوى ﴿غلف﴾ جمع أغلف ، والغلاف : الغطاء ، يقال : سيف أغلف إذا كان في غلافه ، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز ، مستعار من الأغلف الذي لم

(١) تفسير أبي السعود ٩٦/١ .

يخزن[1] ﴿لعنهم﴾ أصل اللعن في كلام العرب : الطردُ والإبعاد يقال : ذئب لعين أي مطرود مبعد والمراد : أقصاهم وأبعدهم عن رحمته ﴿يستفتحون﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصرة ﴿بئسما﴾ أصلها بئس ما أي بئس الذي ، وبئس فعل للذم ، كما أنّ « نِعْم » للمدح ﴿بغياً﴾ البغي : الحسد والظلم ، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد قاله الأصمعي[2] ﴿باءوا﴾ رجعوا وأكثر ما يستعمل في الشر ﴿مهين﴾ مخز مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضرب من النعم التي أمدّهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام ، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة ، والنعمة بالكفران والجحود .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا

التفسير : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ أي تكبرتم عن اتباعه فطائفة منهم كذبتموهم ، وطائفة قتلتموهم . . ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبيّن ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد ، والغرض إقناطه عليه السلام من إيمانهم ، قال تعالى رداً عليهم ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي فقليلٌ من يؤمن منهم ، أو يؤمنون إيماناً قليلاً وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقٌ لما معهم﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين ، مصدقاً لما في التوراة ﴿وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان ، الذي نجد نعته في التوراة ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم

(1) الكشاف ١/ ١٢٢ . (2) البحر المحيط ١/ ٢٩٨ .

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

المرسلين ﴿بئسما اشتروا بـه أنفسـهم﴾ أي بئس الشيء التافه الذي باع به هؤ لاء اليهود أنفسهم ﴿أن يكفروا بما أنـزل اللـه﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله ﴿بغيـاً﴾ أي حسداً وطلباً لما ليس لهم ﴿أن ينزّل الله من فضله على مـن يشاء من عبـاده﴾ أي حسداً منهم لأجل أن ينزّل الله وحياً من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم﴿وللكافرين عـذاب مهيـن﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال لأن كفرهم سببه التكبر والحسـد فقوبلـوا بالإهانة والصغار ﴿وإذا قيل لهـم آمنوا بما أنزل اللـه﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدّقوه واتبعوه ﴿قالوا نؤمن بما أُنزل علينـا﴾ أي يكفينا الايمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿ويكفرون بمـا وراءه وهو الحق مصدقـاً لما معهـم﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله ﴿قل فلـم تقتلون أنبياء الله من قبـل إن كنتم مؤمنين﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحاً فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلاً مؤ منين ؟ ﴿ولقد جاءكـم موسى بالبينـات﴾ أي بالحجج الباهرات ﴿ثم اتخذتـم العجل من بعـده وأنتم ظالمـو ن﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور ، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع .

البـــلاغـــة : ١ ـ تقديم المفعول في الموضعين ﴿فريقاً كذبتم﴾ و﴿فريقاً تقتلون﴾ للإهتمام وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه .

٢ ـ التعبير بالمضارع ﴿وفريقاً تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم ، لأن الفعل المضارع ـ كما هو المألوف في أساليب البلاغة ـ يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً ، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

٣ ـ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ولم يقل«عليهم» ليشعر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم .

٤ ـ الخبر في قوله ﴿ولقـد جاءكم موسى بالبينـات﴾ يراد به التبـكيت والتـوبيخ على عدم اتبـاع الرسول .

٥ ـ أسندت الإهانة إلى العذاب فقال ﴿عذاب مهين﴾ لأن الإهانة تحصل بعذابهم ، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها .

فـائـدة : قال الحسن البصري : إنما سمي جبريل « روح القدس » لأن القدس هو الله ، وروحه جبريل ، فالإضافة للتشريف ، قال الرازي : ومما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى في سورة النحل ﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق﴾[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم . . إلى . . فإن الله عدو للكافرين﴾
من آية (٩٣) إلى نهاية آية (٩٨) .

المنـاسـبـة : هذه طائفة أخرى من جرائم اليهود ، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبلُ الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة ، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان ، فعبدوا العجل من دون الله ، وزعموا أنهم أحباب الله ، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم ، وعادَوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ، وكفروا بالأنبياء والرسل ، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور .

اللغـة : ﴿ميثاقكم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بقوة﴾ بعزمٍ وجدّ ﴿وأشربوا﴾ أُشرب : سُقي أي جعلت قلوبهم تُشربه ، يقال : أُشرب قلبُه حبّاً كذا قال زهير :

فصحـوتُ عنْهـا بعـد حبٍّ داخلٍ والحـب تُشـربُـه فـؤادُك داءُ[2]

﴿خالصة﴾ مصدر كالعافية والعاقبة بمعنى الخلوص أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد ﴿أحـرص﴾ الحرص : شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث (إحرص على ما ينفعك) ﴿بمزحزحه﴾ الزحزحة : الإبعادُ والتنحية قال تعالى ﴿فمن زحزح عن النار﴾ أي أُبعد وقال الشاعر :

خليلـيَّ ما بال الدُّجَـى لا يُزَحْزَحُ ومـا بالُ ضوء الصبـح لا يتوضّح[3]

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ

التفسير : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ، ورفعنا فوقكم جبلِ الطور قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقـوة﴾ أي بعزمٍ وحزم وإلاّ طرحنا الجبل فوقكم ﴿واسمعـوا﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قالوا سمعنـا وعصينـا﴾ أي سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ﴿وأشربوا في قلوبهـم العجـل﴾ أي خالط حبُّه قلوبهم ، وتغلغـل في

(١) محاسن التأويل ٢/ ١٨٦ . (٢) القرطبي ٢/ ٣١ . (٣) الفتوحات الالهيه ١/ ٨٢

ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿بكفرهم﴾ أي بسبب كفرهم ﴿قل بئسما يأمركم بـه إيمانكـم﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تزعمون الايمان فبئس هذا العمل والصنيع والمعنى : لستم بمؤمنين لأن الايمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصـة من دون النـاس﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿فتمنوا المـوت إن كنتـم صادقيـن﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة ، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة . ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى راداً عليهم تلك الدعوى الكاذبة ﴿ولن يتمنـوه أبداً بما قدمت أيديهـم﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿والـله عليم بالظالميـن﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حيـاة ومن الذين أشركوا﴾ أي ولتجدنّ اليهود أشدّ الناس حرصاً على الحياة ، وأحرص من المشركين أنفسهم ، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿يود أحدهم لو يعمـر ألف سنة﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر﴾ أي وما طول العمر ـ مهما عمَّر ـ بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿والـله بصير بما يعملـون﴾ أي مطّلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿قل من كـان عدواً لجبريـل﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله ، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿فإنـه نزّله على قلبك بإذن اللـه﴾ أي فإن جبريل الأمين نزّل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿مصدقاً لما بيـن يديـه﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿وهدى وبشـرى للمؤمنيـن﴾ أي وفيه الهداية الكاملـة ، والبشـارة السـارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿من كان عدواً لله وملائكتـه ورسلـه وجبـريـل وميكـال﴾ أي من عادى اللـه وملائكته ورسله ، وعادى على الوجه الأخص « جبريل وميكائيل » فهو كافر عدو لله ﴿فـإن اللـه عدو

للكافريــن﴾ لأن الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه ، ومن عاداهم عاداه الله ، ففيه الوعيد والتهديد الشديد .

سَبَبُ النّزول : روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : إنه ليس نبيٌّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي ، فمن صاحبُك حتى نتابعك ؟ قال : جبريل قالـوا : ذاك الـذي ينـزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك فأنزل الله ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك . . .﴾[1] الآية .

البَـــلاَغَـــة : ١ ـ ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ فيه استعارة مكنية ، شبّـه حبَّ عبـادة العجـل بمشروب لذيذ سائغ الشراب ، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشيء من لوازمـه وهـو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية . قال في تلخيص البيان : « وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبه فمازجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ »[2].

٢ ـ ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكمّ بهم كقوله ﴿أصلاتك تأمرك﴾ وكذلك إضافة الإيمان إليهم ، أفاده الزمخشري .

٣ ـ التنكير في قوله ﴿على حياة﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين .

٤ ـ ﴿فإن الله عدوٌ للكافرين﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وجيء بها إسمية لزيادة التقبيح لأنها تفيد الثبات ، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال ﴿عدو للكافرين﴾ بدل عدوٌ لهم لتسجيل صفة الكفر عليهم ، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين .

٥ ـ ﴿وجبريل وميكال﴾ جاءِ بعد ذكر الملائكة فهـو من باب ذكر الخـاص بعـد العـام للتشريف والتعظيم .

الفَــوَائِــد : الأولى : ليس معنى السمع في قوله ﴿واسمعوا﴾ إدراك القول فقط ، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبرٍ وطاعةٍ والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ .

الثانية : خصّ القلب بالذكر ﴿نزّله على قلبك﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى ﴿لهم قلوب لا يعقلون بها﴾ .

الثالثة : الحكمة في الإتيان هنا بـ « لن » ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ وفي الجمعة بـ « لا » ﴿ولا يتمنونه أبداً﴾ أن ادعاءهـم هنا أعظم من ادعائهم هناك ، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة ، وهناك كونهم أولياء

(١) رواه الترمذي وانظر القرطبي ٢/ ٣٦ . (٢) تلخيص البيان للشريف الرضي ص ٩ .

لله من دون الناس ، فناسب هنا التوكيد بلن المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل ، وأما هنـاك فاكتفى بالنفي[١] .

الرابعة : الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر ، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمني الموت من اليهود الذين كانوا في عصرهﷺ وفي الحديث الشريف (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار)[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات . . إلى . . لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية آية (١٠٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود ، من خبث السريرة ونقض العهود ، والتكذيب لرسل الله ومعاداة أوليائه ، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو « جبريل » الأمين عليه السلام ، أعقب ذلك ببيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود ، وتكذيب الرسل ، واتباع طرق الشعوذة والضلال ، وفي ذلك تسلية لرسول اللهﷺ حيث سلكوا معه هذه الطريقة ، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير ، وإلزامهم الإيمان به واتباعه ، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم ، واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة ، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء ، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

اللغة : ﴿نبذ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ومنه سمي اللقيط منبوذاً لأنه ينبذ على الطريق قال الشاعر :

إنّ الـذين أمرتهـم أن يعدلوا ... نبـذوا كتابـك واستحلوا المَحْرَمـا[٣]

﴿تتلو﴾ تحدّث وتروي من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التلاوة بمعنى الاتبـاع قال الطبـري : ولقـول القائل : « هو يتلو كذا » في كلام العرب معنيان : أحدهما الاتباع كما تقول : تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه وتبعتَ أثره ، والآخر : القراءة والدراسـة كقـولك : فلان يتلـو القـرآن أي يقـرؤ ه[٤] ﴿السحـر﴾ قال الجوهري : كلٌّ ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر ، وسحره أيضاً بمعنى خدَعه[٥] وفي الحديث (إنّ من البيان لسحراً) ﴿فتنة﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار ومنه قولهم : فتنتُ الذهب إذا امتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿خلاق﴾ الخلاق : النصيب قال الزجاج : هو النصيب الوافر من الخير ، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿لمثوبة﴾ المثوبة : الثواب والجزاء .

---

(١) الصاوي على الجلالين ١/ ٤٩ . (٢) القرطبي ٢/ ٣٣ . (٣) القرطبي ٢/ ٤٠ . (٤) الطبري ٢/ ٤٠٧ . (٥) الصحاح للجوهري .

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

التفسير : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالآت على نبوتك ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر ﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلّما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم ؟ ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مصدقٌ لما معهم﴾ أي مصدقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ أي طرح أحبارهم وعلماؤهم التوارة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وما كفر سليمان﴾ أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ أي ولكنّ الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وما أُنزل على المَلَكَيْن ببابلَ هاروتَ وماروتَ﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملَكَيْن وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة ، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أي إن المَلَكَيْن لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء ، فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه ، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس

فقد نجا ، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل . . قال تعالى ﴿فيتعلمـو ن منهما ما يفرقون به بيـن المرء وزوجه﴾ أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وما هم بضارين به مـن أحد إلا بإذن اللـه﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحداً إلا إذا شاء الله ﴿ويتعلمون ما يضرهـم ولا ينفعهـم﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خـلاق﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر ، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانـوا يعلمـو ن﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿ولو أنهـم آمنـوا واتقوا﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لمثوبة من عنـد الله خير لو كانـوا يعلمـو ن﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر ، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار .

سَبَبُ النّزول : لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين ، قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً ! ! والله ما كان إلا ساحراً فنزلت هذه الآية ﴿وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر﴾[1] .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿رسولٌ من عند الله﴾ التنكير للتفخيم ووصفُ الرسول بأنه آتٍ من عند الله لإفادة مزيد التعظيم .

٢ ـ ﴿وراء ظهورهم﴾ مثلٌ يُضرب للإعراض عن الشيء جملةً تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً ، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه ، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية .

٣ ـ ﴿لو كانوا يعلمون﴾ هذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة ، من أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزّل منزلة الجاهل به ، وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين .

٤ ـ ﴿لمثوبة من عند الله﴾ جيء بالجملة الإسمية بدل الفعلية للدلالة على الثبوت والاستقرار .

فَـائِـدَة : الحكمة من تعليم الملكين الناس السحر ، أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنوناً غريبة من السحر ، وربما زعموا أنهم أنبياء ، فبعث الله تعالى المَلكيْن ليعلما الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة ، ويعرفوا أن الذين يدّعون النبـوة كذباً إنما هم سحرة لا أنبياء .

* * *

(١) زاد المسير ١/ ١٢٠ والقرطبي ٢/ ٤١ .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا . . إلى . . إن الله بما تعملون بصير﴾ من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قبائح اليهود ، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة ، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر ، الذي يضمرونه للنبيّ ﷺ والمسلمين ، من الطعن والحقد والحسد ، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين ، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفاً للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية .

اللغة : ﴿راعنا﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال ، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان ، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحُمْق ولذلك نهي عنها المؤمنون ﴿انظرنا﴾ من النظر والانتظار تقول : نظرتُ الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿يود﴾ يتمنى ويحب ﴿ننسخ﴾ النسخ في اللغة : الإبطال والإزالة يقال : نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع : رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿نُنْسها﴾ من أنسى الشيءَ جعله منسياً فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب ﴿وليّ﴾ الولي : من يتولى أمور الإنسان ومصالحه ﴿نصير﴾ النصير : المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿أم﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون ﴿يتبدل﴾ يقال : بدّل وتبدل واستبدل أي جعل شيئاً موضع آخر ، وتبدل الكفر بالايمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿سواء السبيل﴾ أي وسط الطريق ، والسواء من كل شيء : الوسط ، والسبيل معناه الطريق ﴿فاعفوا﴾ العفو : ترك المؤاخذة على الذنب ﴿واصفحوا﴾ والصفح : ترك التأنيب عنه .

سبب النزول : روي أن اليهود قالوا : ألا تعجبون لأمر محمد ؟ ! يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، يناقض بعضه بعضاً فنزلت[1] ﴿ما ننسخ من آية﴾[2] .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿لا تقولوا راعنا﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا ﴿وقولوا انظرنا﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿واسمعوا﴾ أي أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبّوه ، عذاب أليم موجع ﴿ما يود الذين كفروا من أهل

---

(١) الكشاف ١/ ١٣١ . (٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا « روائع البيان » ج ١ ص ١٠٠ .

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خيـر من ربكم﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزّل عليكم شيء من الخير ، بغضاً فيكم وحسداً لكم **﴿والله يختـص برحمته من يشـاء﴾** أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده **﴿والله ذو الفضـل العظيـم﴾** والله واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى رداً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ **﴿ما ننسخ من آيـة أو ننسها﴾** أي ما نبدّل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يا محمد أي نمحها من قلبك **﴿نأت بخيرٍ منهـا أو مثلهـا﴾** أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل ، إما برفع المشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر والثواب لكم **﴿ألـم تعلم أن اللـه على كل شيء قديـر﴾** أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد ! ! **﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾** أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شئون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء ؟ **﴿وما لكـم من دون اللـه من ولي ولا نصيـر﴾** أي ما لكم وليٌّ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين **﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسـى من قبـل﴾** أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم **﴿أرنا الله جهرة﴾** فتضلوا كما ضلوا **﴿ومن يتبدل الكفر بالايمان﴾** أي يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان **﴿فقد ضلَّ سواء السبيل﴾** أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي **﴿ودّ كثيـر من أهـل الكتـاب﴾** أي تمنى كثير من اليهود والنصارى **﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾** أي لو يصيّرونكم كفاراً بعد أن آمنتم **﴿حسـداً من عند أنفسهـم﴾** أي حسداً منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة **﴿من بعد ما تبيّـن لهم الحق﴾** أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أن دينكم هو الحق **﴿فاعفوا واصفحـوا﴾** أي اتركوهم وأعـرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم **﴿حتى يأتي اللـه بأمـره﴾** أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم **﴿إن**

الله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما « الصلاة والزكاة »وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ أي ما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً تجدوا ثوابه عند الله ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين .

البلاغة : ١ ـ الإضافة في قوله ﴿من ربكم﴾ للتشريف . وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم .

٢ ـ تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿والله يختص﴾ ﴿والله ذو الفضل﴾ للإيذان بفخامة الأمر .

٣ ـ ﴿ألم تعلم﴾ الاستفهام للتقرير والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بدليل قوله تعالى ﴿وما لكم من دون الله﴾ .

٤ ـ وضع الاسم الجليل موضع الضمير ﴿إن الله﴾ و﴿من دون الله﴾ لتربية الروعة والمهابة في النفوس .

٥ ـ ﴿ضلّ سواء السبيل﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي . وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل .

الفوائد : الأولى : خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن ، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم ، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكّرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال .

الثانية : نهي المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه السلام ﴿راعنا﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿انظرنا﴾ وفي ذلك تنبيه لأدبٍ جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطباته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم .

الثالثة : كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿راعنا﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال يا أعداء الله : عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنَّ عنقه فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت هذه الآية ﴿لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . . إلى . . إن الله سميع عليم﴾ من آية (١١١) إلى نهاية آية (١١٥)

المنَاسَبَة : في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب ، حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر ، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم ، ويكفرون بعيسى وبالإنجيل ، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم ، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقفٌ عليه ، فأكذب الله الفريقين ، وبيّن أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل الصالحات .

اللغَة : ﴿هوداً﴾ أي يهوداً جمع هائد ، والهائد : التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب ﴿إنَّا هُدنا إليك﴾،﴿أمانيهم﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه،﴿برهانكم﴾ البرهان : الدليل والحجة الموصلان إلى اليقين،﴿أسلم﴾ استسلم وخضع،﴿خرابها﴾ الخراب : الهدم والتدمير وهو حسّيٌ كتخريب بيوت الله ، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها،﴿خزي﴾ هوانٌ وذلة،﴿ثَمَّ﴾ بفتح الثاء أي هناكِ ظرفٌ للمكان،﴿وجه الله﴾ الوجه : الجهة والمراد بوجه الله : الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾[1] الآية .

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا

التفسِير : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ﴿تلك أمانيُّهم﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي قل لهم يا محمد أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ أي بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله ﴿وهو محسن﴾ أي وهو مؤمن مصدقٌ متبعٌ لرسول الله ﷺ ﴿فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعتريهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيم مقيم ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ١٠٨ .

يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

النصارى على دين صحيح معتدٍّ به فدينهم باطل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علم ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا : ليس محمد على شيء ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله ، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس ، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي لأولئك المذكورين هوانٌ وذلة في الدنيا ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار . ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم ، وقد نزلت الآية فيمن أضاع جهة القبلة ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي يسع الخلق بالجود والإفضال ، عليم بتدبير شئونهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم .

البلاغة : ١ - ﴿تلك أمانيهم﴾ الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة .

٢ - ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ الأمر هنا للتبكيت والتقريع .

٣ - ﴿من أسلم وجهه لله﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء والوجه ههنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته[1] .

٤ - ﴿عند ربه﴾ العندية للتشريف ووضع إسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به .

---

(١) تلخيص البيان ص ١٠ .

٥ ـ ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم نظموا أنفسهم ـ مع علمهم ـ في سلك من لا يعلم أصلاً .

٦ ـ ﴿ومن أظلم﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه .

٧ ـ ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل فظيع لا يكاد يوصف لهوله .

٨ ـ ﴿عليم﴾ صيغة فعيل للمبالغة . أي واسع العلم .

فـائـدة : قال الإمام الفخر : إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وقال زيد بن نفيل :

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحمل صخراً ثقالاً
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المُزْنُ تحمل عذباً زلالاً[1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه . . إلى . . ولا هم ينصرون﴾ من آية (١١٧) إلى نهاية آية (١٢٣) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى وزعمهم أن الجنة خاصة بهم لا يشاركهم فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أنَّ لله ولداً حيث زعم اليهود أن عزيراً ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله وردّ دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع .

اللغة : ﴿سبحانه﴾ سبحان مصدر سبّح بمعنى نزّه ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قانتون﴾ مطيعون خاضعون من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بديع﴾ البديع : المبدع من الإبداع،والإبداع : اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿قضى﴾ أراد وقدّر ﴿بشيراً﴾ **البشير: المبشّر** وهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿نذيراً﴾ النذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿الجحيم﴾ المتأجج من النار ﴿ملّتهم﴾ أي دينهم وجمعها ملل وأصل الملّة : الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسماً للشريعة التي أنزلها الله ﴿عدل﴾ فداء .

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

التفسير : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله،والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في

(١) التفسير الكبير ٤ / ٤

وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ

دعواهم فقال ﴿**سبحانه**﴾ أي تقدس وتنزّه عما زعموا تنزهاً بليغاً ﴿**بل له ما في السموات والأرض**﴾ بل للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿**كلٌ له قانتون**﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿**وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئاً وجد بلمح البصر ، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿وما أمرنا إلا واحدةٌ كلمحٍ بالبصر﴾ ﴿**وقال الذين لا يعلمون**﴾ المراد بهم جهلة المشركين وهم كفار قريش ﴿**لولا يكلمنا الله**﴾ أي هلاّ يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله ﴿**أو تأتينا آية**﴾ أي تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك ، قالوا ذلك استكباراً وعناداً ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم**﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسلهم ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿**قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون**﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين ، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به ﴿**إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً**﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشريعة النيّرة والدين القويم بشيراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿**ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم**﴾ أي أنت لست مسئولاً عمن لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾ أي لن ترضى عنك الطائفتان « اليهود والنصارى » حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم**﴾ أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿**ما لَكَ من الله من ولي ولا نصير**﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿**الذين آتيناهم الكتاب**﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿**يتلونه حق تلاوته**﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل ﴿**أولئك يؤمنون به**﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقاً دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿**ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿**يا بني إسرائيل**

هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً ، لأن كل نفس بما كسبت رهينة ﴿ولا يقبل منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿ولا تنفعها شفاعة﴾ أي لا تفيدها شفاعة أحد لأنها كفرت بالله ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿سبحانه﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد قال أبو السعود : وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من « السَّبح » ومن جهة النقل إلى التفعيل « التسبيح » ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى والمراد أنزهه تنزيهاً لائقاً به[١] .

٢ ـ ﴿كلٌ له قانتون﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿قانتون﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء ، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان .

٣ ـ التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أصحاب الجحيم﴾ إيذانٌ بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان .

٤ ـ إيراد الهدى معرفاً بأل في قوله ﴿هو الهدى﴾ مع اقترانه بضمير الفصل « هو » يفيد قصر الهداية على دين الله فهو من باب قصر الصفة على الموصوف فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى .

٥ ـ ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب .

تنبيه : قال القرطبي : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع ، ومنه أصحاب البدع ، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام وفي البخاري « نعمت البدعة هذه » يعني قيام رمضان . . ثم قال : وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ؟ فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح ويعضده قول عمر « نعمت البدعة هذه » وإلاّ فهي في حيز الذم والإنكار وقد بيّن هذا الحديث الشريف (من سنَّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها . . ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها . . »[٢] .

* * *

(١) تفسير أبي السعود ١/١١٧ . (٢) القرطبي ٢/٨٧ .

قال الله تعالى ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن . . إلى . . إنك أنت العزيز الحكيم﴾ من آية (١٢٤) إلى نهاية آية (١٢٩) .

المناسبة : بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل ، وبيّن كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد ، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال ، وصل حديثهم بقصة إبراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ويقرون بفضله، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم « محمد »ﷺ ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم ، ثم هو من ولد اسماعيل عليه السلام فكان أولى بالاتباع والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام .

اللغة : ﴿ابتلى﴾ امتحن والابتلاء : الاختبار ﴿فأتمهن﴾ أتى بهن على التمام والكمال ﴿إماماً﴾ الإمام : القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مثابة﴾ مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع أي أنهم يترددون إليه لا يقضون منه وطرهم قال الشاعر :

جُعِلَ البيتُ مثاباً لهُمُ ليس منه الدهرَ يقضون الوطر

﴿وأمناً﴾ الأمن : السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وعهدنا﴾ أمرنا وأوحينا ﴿للطائفين﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿والعاكفين﴾ جمع عاكف من العكوف وهي الإقامة على الشيء والملازمة له والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿فأمتعه﴾ من التمتيع وهو إعطاء الإنسان ما ينتفع به ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ ﴿القواعد﴾ جمع قاعدة وهي الأساس ﴿مناسكنا﴾ جمع منْسك وهي العبادة والطاعة ﴿الحكمة﴾ العلم النافع المصحوب بالعمل والمراد بها السنة النبوية المطهرة ﴿ويزكيهم﴾ من التزكية وهي في الأصل التنمية يقال : زكى الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى ﴿قد أفلح من زكّاها﴾ .

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

التفسير : ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن﴾ أي اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل ، وكلّفه بجملة من التكاليف الشرعية « أوامر ونواهٍ » فقام بهن خير قيام ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس ومناراً يهتدي بك الخلق ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال إبراهيم واجعل يا ربّ أيضاً أئمة من ذريتي ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي لا ينال هذا الفضل العظيم أحدٌ من الكافرين ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يقبلون عليه من كل جانب ﴿وأمناً﴾ أي مكان أمن يأمن من لجأ إليه، وذلك لما أودع الله في قلوب

وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

العرب من تعظيمه وإجلاله ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ أي وقلنا للناس اتخذوا من المقام - وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلّى أي صلوا عنده ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل ﴿أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ أي أمرناهما بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان ليكون معقلاً للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه ، فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : الطائفين ، والمعتكفين ، والمصلين . . ثم أخبر تعالى عن دعوة الخليل إبراهيم فقال ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أي اجعل هذا المكان - والمراد مكة المكرمة - بلداً ذا أمن يكون أهله في أمنٍ واستقرار ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات ، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك وخصَّ بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جواباً له ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً﴾ أي قال الله وأرزق من كفر أيضاً كما أرزق المؤمن ،أأخلق خلقاً ثم لا أرزقهم ؟ أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة حياته فيها ﴿ثم اضطره إلى عذاب النار﴾ أي ثم أُلجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصاً ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم . قاس الخليل الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبرّ والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين ، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين « إبراهيم وإسماعيل » قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم﴾ أي يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا تقبل منا أي إقبل منا عملنا هذا واجعله خالصاً لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا ﴿ربنا واجعلنا مسلمَين لك﴾ أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿وتب علينا

إنـك التواب الرحيـم﴾ أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿ربنا وابعث فيهم رسـولاً منهم﴾ أي ابعث في الأمة المسلمة رسولاً من أنفسهم وهذا من جملة دعواتهما المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنّة المطهرة ﴿ويزكيهم﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

البَــلاَغَــة : ١ ـ التعرض لعنوان الربوبية ﴿ابتلى ابراهيمَ ربُّه﴾ تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير ، والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه بأوامر ونواهي يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى .

٢ ـ إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله ﴿وأمناً﴾ للمبالغة والإسناد مجازيُ أي آمناً من دخله كقوله تعالى ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وخيرُ ما فسرته بالوارد .

٣ ـ إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وطهّرْ بيتي﴾ للتشريف والتعظيم .

٤ ـ قوله تعالى ﴿وإذ يرفع إبراهيم﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ولذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأنَّ السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبنّاء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود : وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة(١) .

٥ ـ ﴿التواب الرَّحيم﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن فعال وفعيل من صيغ المبالغة .

الفَــوَائِــد : الفائدة الأولى : تقديم المفعول في قوله ﴿ابتلى إبراهيمَ ربُّه﴾ واجب لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول ، فلو قُدّم الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبةً قال ابن مالك :

وشَـاعَ نحـو خاف ربَّـه عمر   وشـذّ نحـو زان نورُه الشجر

الثانية : الاختبار في الأصل الامتحان بالشيء ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار ، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق .

الثالثة : اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام وأصح هذه الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال : « الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجة نمرود في الله ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه ، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه »(٢) .

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٤ . (٢) الدر المنثور ١/ ١١

الرابعة : المراد من الإمامة في الآية الكريمة «الإمامة في الدين» وهي النبوة التي حرمها الظالمون ، ولو كانت الإمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إذ نالها كثير من الظالمين ، فظهر أن المراد الإمامة في الدين خاصة .

الخامسة : ذكر العلامة ابن القيم أن السرَّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأفئدة ، وهوى القلوب ومحبتها له ، فجذبهُ للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطراً ، بل كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له اشتياقاً .

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً [١]

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . . إلى . . ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٣٤)

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام ، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد ، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين ، وأكّد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي ، خفيف العقل ، متبع لخطوات الشيطان .

اللغَة : ﴿سفه نفسه﴾ امتهنها واستخفَّ بها وأصل السفه : الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف ﴿اصطفيناه﴾ أي جعلناه صافياً من الأدناس مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلَّة والإمامة العظمى ﴿وصّى﴾ التوصية : إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شهداء﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خلت﴾ مضت وانقرضت .

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

التفسِير : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلا من استخفَّ نفسه وامتهنها ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إذ قال له ربُّه أسلم﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلصْ نفسك له ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعتُ لحكمه ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ أي وصّى الخليل أبناءه باتباع

---

(١) محاسن التأويل ٢/ ٢٤٧ .

﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ديناً وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾ ؟ أي أيَّ شيء تعبدونه بعدي ؟ ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ أي لا نعبد إلا إلهاً واحداً هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون ، والغرض تحقيق البراءة من الشرك ، قال تعالى مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تلك أمة قد خلت﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء .

البَــلَاغَــة : ١ ـ ﴿ومن يرغب﴾ استفهام يراد به الإنكار والتقريع ، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين .

٢ ـ التأكيد بـ « إنَّ » و « اللام » ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ لأنه لما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد .

٣ ـ ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ هو من باب الالتفات إذ السياق ﴿إذ قلنا﴾ والالتفات من محاسن البيان ، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿ربُّه﴾ لإظهار مزيد اللطف والإعتناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ ولم يقل : أسلمتُ لك للإيذان بكمال قوة إسلامه وللإشارة إلى أن من كان رباً للعالمين لا يليق إلا أن يُتلقّى أمرُه بالخضوع وحسن الطاعة .

٤ ـ قوله ﴿آبائك﴾ شمل العم والأب والجد ، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب إسحاق وهو من باب « التغليب » وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام .

فَــائِــدَة : قال أبو حيان : « كنّى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسُه لا يقول المحتضر شيئاً ، وفي قوله ﴿حضر الموتُ﴾ كناية غريبة وهو أنه غائب ولابدّ أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء : واجعل الموت خير غائب ننتظره »[١] .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٠١ .

تـنبيـه : ظاهر قوله تعالى ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ النهي عن الموت إلا على هذه الحالة من الإسلام ، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت ، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه أبداً واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل كقولك لا تصلِّ إلا وأنت خاشع .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . . إلى . . ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ من آية (١٣٥) إلى نهاية آية (١٤١) .

المنـاسـبَة : لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة ، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة ، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية ، وبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد ، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين .

اللغـة : ﴿حنيفاً﴾ الحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ، والحنفُ الميل وبه سمي الأحنف لميلٍ في إحدى قدميه قال الشاعر :

ولـكنّا خُلقنا إذ خُلقنا حنيفـاً ديننُـا عن كلِ دين[١]

﴿الأسباط﴾ جمع سِبْط وهم حفدةُ يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثني عشر سبطاً وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شقاق﴾ الشقاق : المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وهذا في شق ﴿فسيكفيكهم﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صبغة الله﴾ الصبغة مأخوذة من الصَّبْغ وهو تغيير الشيء بلونٍ من الألـوان والمراد بهـا الـدِّينُ ﴿أتحاجـوننـا﴾ أتجادلوننـا من المحاجّة وهـي المجادلـة ﴿مخلصون﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده .

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا

التفسـير : ﴿وقالـوا كانوا هوداً أو نصـارى تهتدوا﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا فكلٌ من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿قل بـل ملّة إبراهيـم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتّبع ملة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمناً موحّداً وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذان بأنَّ ما هم عليه إنما هو شرك وضلال . ﴿قولـوا آمنـا بالله وما أُنزل إلينـا﴾ أي قولوا أيها

(١) الكشاف ١/ ١٤٥ .

﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

المؤمنون آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم ﴿وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أي وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿وما أوتي النبيّون من ربهم﴾ أي ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً ونصدّق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ﴿لا نفرّق بين أحد منهم﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾ أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم ﴿وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿فسيكفيكهم الله﴾ أي سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم ﴿وهو السميع العليم﴾ أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب، ولا أحد أحسن من الله صبغةً أي ديناً ﴿ونحن له عابدون﴾ أي ونحن نعبده جلّ وعلا ولا نعبد أحداً سواه ﴿قل أتحاجوننا في الله﴾ أي أتجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن الأنبياء منكم دون غيركم؟ ﴿وهو ربنا وربكم﴾ أي ربُّ الجميع على السواء وكلُّنا عبيده ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي قد أخلصنا الدين والعمل لله ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾؟ أي أم تدّعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى ﴿قل

أأنتم أعلم أم الله﴾ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ فكيف تزعمون أنهم على دينكم ؟ ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ أي لا أحد أظلم ممّن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما أخبر الباري عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها. وفيه وعيد شديد ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ كرّرها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، وقد تقدم تفسيرها فأغنى عن الإعادة .

البلاغة : ١ ـ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود كونوا يهوداً وقال النصارى كونوا نصارى ، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك لأن كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلاً .

٢ ـ ﴿فسيكفيكهم الله﴾ فيه إيجاز ظاهر أي يكفيك الله شرهم ، وتصدير الفعل بالسين دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب .

٣ ـ ﴿السميع العليم﴾ من صيغ المبالغة ومعناه الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء .

٤ ـ ﴿صبغة الله﴾ سمي الدين صبغةً بطريق الاستعارة حيث تظهر سمته على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب[١] .

٥ ـ ﴿أتحاجوننا في الله﴾ الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقريع .

الفوائد : الفائدة الأولى : تكرر ورود هذه الآية في مواطن من القرآن ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ قال أبو حيان : ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيداً ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى[٢] .

الثانية : قال ابن عباس : إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماءٍ لهم يقال له : المعمودي ليطهروه بذلك ، ويقولون هذا طهور مكان الختان فإذا فعلوا ذلك صار نصرانياً حقاً فأنزل الله هذه الآية[٣] .

الثالثة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أُنزل إلينا) رواه البخاري .

* * *

(١) تلخيص البيان ص ١١ . (٢) البحر المحيط ١/ ٤١٦ . (٣) أسباب النزول للواحدي ص ٢٢ .

قال الله تعالى : ﴿سيقول السفهاء من الناس . . إلى . . وما الله بغافل عما يعملون﴾ من آية (١٤٤) إلى نهاية آية (١٤٥).

المناسبة : زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهوداً و نصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس وكان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس فلما أمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرّفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام وقالوا : لقد اشتاق محمدٌ إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دين قومه ، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقّنه الحجة الدامغة ليردّ عليهم ، ويوطّن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه ، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام .

اللغة : ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي ، قليل المعرفة بالمنافع والمضار ، وأصل السفه الخفة والرقة من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج ﴿ولاّهم﴾ صرفهم يقال: ولّى عن الشيء وتولّى عنه أي انصرف ﴿وسطاً﴾ قال الطبري : الوسط في كلام العرب : الخيار وقيل : العدل[1] ، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿عقبيه﴾ تثنية عقب وهو مؤخر القدم ﴿كبيرة﴾ شاقة وثقيلة ﴿شطر﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر : تعدو بنا شطر نجد وهي عاقدة ، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث (الطهور شطر الإيمان) .

سبب النزول : عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة فأنزل الله تعالى ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء﴾ الآية فقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قال تعالى ﴿قل للّه المشرق والمغرب﴾[2] إلى آخر الآية ، أخرجه البخاري .

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ

التفسير : ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس ﴿ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي ما صرفهم وحوّلهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس ، قبلة المرسلين من قبلهم ؟ ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ أي قل لهم يا محمد الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم

(١) مختصر الطبري ١/ ٥٥ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢٣ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾

شهيداً﴾ أي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم **﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾** أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة **﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾** أي إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدّق الرسول ، ممن يشكّك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه **﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾** أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلاّ على الذين هداهم الله **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** أي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها ، وذلك حين سألوهﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت ، وقوله تعالى **﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾** تعليل للحكم أي أنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾** كثيراً ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقاً لتحويل القبلة **﴿فلنولينّك قبلةً ترضاها﴾** أي فلنوجهنك إلى قبلةٍ تحبها ، ـ وهي الكعبة ـ قبلة أبيك إبراهيم **﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾** أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة **﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾** أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً **﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾** أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حقٌ من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات **﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها ، وفيه وعيد وتهديد لهم .**

البَـلاَغَـة : ١ ـ في قوله **﴿ينقلب على عقبيه﴾** استعارة تمثيلية حيث مثّل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه أفاده الإمام الفخر .

٢ ـ **﴿لرءوف رحيم﴾** الرأفة : شدة الرحمة وقدّم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله **﴿صراط مستقيم﴾** وقوله **﴿رءوف رحيم﴾** وكلاهما من صيغ المبالغة .

٣ ـ **﴿فولّ وجهك﴾** أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله **﴿ويبقى وجه ربك﴾** وهذا النوع يسمى « المجاز المرسل » من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

الفَـوَائِـد : **الأولى** : أخرج البخاري في صحيحه أن رسول اللهﷺ قال : (يُدعى نوح عليه

السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت ؟ فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ما جاءنا من نذير فيقول من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلّغ فذلك قوله عز وجل ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ .

الثانية : سمى الله تعالى الصلاة « إيماناً » في قوله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتمُّ إلا بها ، ولأنها تشتمل على نيةٍ وقولٍ وعمل .

الثالثة : في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ، لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرجاً عظيماً على الناس .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك . . إلى . . ولعلكم تهتدون﴾ من آية (١٤٥) إلى نهاية آية (١٥٠).

المناسبة : لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق ، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم ، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة ، وإنما خالفوك عناداً واستكباراً ، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب .

اللغة : ﴿آية﴾ الآية : الحجة والعلامة ﴿أهواءهم﴾ جمع هوى مقصور ، وهوى النفس : ما تحبه وتميل إليه ﴿الممترين﴾ الامتراء : الشك ، امترى في الشيء شك فيه ومنه المراء والمِرْية ﴿ولا يزال الذين كفروا في مريةٍ منه﴾ أي شك ﴿وجهة﴾ قال الفراء : وِجهة وجِهَة ووجه بمعنى واحد والمراد بها القِبلة ﴿هو مولّيها﴾ أي هو مولّيها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء : أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي بادروا وسارعوا ﴿الخيرات﴾ الأعمال الصالحة جمع خيْرة ﴿تخشوهم﴾ تخافوهم والخشية : الخوف .

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ

التفسير : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ أي والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلّوا إلى قبلتك ﴿وما أنت بتابعٍ قبلتهم﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حوّلك الله عنها ، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود : لو ثبتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريراً له عليه السلام ﴿وما بعضهم بتابعٍ قبلة بعض﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من

وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

بعد ما جاءك من العلم﴾ أي ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم ، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي **﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾** أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم ، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين ، وهو من باب التهييج للثبات على الحق . **﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾** أي اليهود والنصارى **﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** أي يعرفون محمداً معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين **﴿وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾** أي وإن جماعة منهم ـ وهم رؤساؤهم وأحبارهم ـ ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان **﴿الحقُّ من ربك فلا تكوننَّ من الممترين﴾** أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكوننَّ من الشاكّين ، والخطاب للرسول والمراد أمته **﴿ولكلٍ وجهةٌ هو مولّيها فاستبقوا الخيرات﴾** أي لكل أمة من الأمم قبلةٌ هو مولّيها وجهَه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات **﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً﴾** أي في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قُلل الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم **﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾** أي من أيِّ مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة **﴿وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾** تقدم تفسيره وكرّره لبيان تساوي حكم السفر والحضر **﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾** هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة ، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية ، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى **﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾** أي عرّفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا : يجحد ديننا ويتبع قبلتنا

فتكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين : يدعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين .

البلاغة : ١ ـ وضع اسم الموصول موضع الضمير في قوله ﴿أوتوا الكتاب﴾ للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد .

٢ ـ ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب للثبات على الحق .

٣ ـ ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ لأنها جملة اسمية أولاً ولتأكيد نفيها بالباء ثانياً ذكره صاحب الفتوحات الإلهية .

٤ ـ ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ فيه تشبيه « مرسل مفصل » أي يعرفون محمداً معرفةً واضحة كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم .

الفوائد : الأولى : روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ولست أشك فيه أنه نبيٌّ ، وأما ولدي فلا أدري ما كان من أمه فلعلها خانت ، فقبّل عمر رأسه[١] .

الثانية : توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم ، ولهذا زاد الله في ذم أهل الكتاب بقوله ﴿وهم يعلمون﴾ فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهلٍ كمن يرتكبه عن علم .

الثالثة : تكرر الأمر باستقبال الكعبة ثلاث مرات قال القرطبي : والحكمة في هذا التكرار أن الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو ببقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار .[٢]

* * *

قال الله تعالى : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم . . إلى . . وأولئك هم المهتدون﴾
من آية (١٥١) إلى نهاية آية (١٥٧) .

المناسبة : بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين ، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم ، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ ، بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل ، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة الكريمة ، وقد عدّد القرآن الكريم جرائمهم ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون ، ولما انتهى الحديث عن اليهود بعد ذلك البيان الواضح جاء

(١) مختصر ابن كثير ١٤٠/١ . ومحاسن التأويل ٣٠٥/٢ . (٢) القرطبي ١٦٨/٢ .

دور التذكير للمؤمنين بالنعم الجليلة والتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين .

اللغــة : ﴿الكتاب﴾ القرآن العظيم ﴿الحكمة﴾ السنّة النبوية ﴿فاذكروني﴾ أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور ، وسُمّي الذكر باللسان ذكراً لأنه علامة على الذكر القلبي ﴿ولنبلونكم﴾ أصل البلاء المحنة ، ثم قد يكون بالخير أو بالشر ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ ﴿مصيبة﴾ المصيبـة : كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده ﴿صلوات﴾ الأصل في الصلاة الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الاستغفار .

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

التفسـير : ﴿كما أرسلنـا فيكم رسولاً منكـم﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿ ولأتم نعمتي ﴾ والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم ﴿يتلواعليكم آياتنـا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿ويزكيكـم﴾ أي يطهركم من الشرك وقبيح الفعال ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمـة﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد ، والسنة النبوية المطهرة ﴿ويعلمكم ما لـم تكونـوا تعلمـون﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه﴿فاذكرونـي أذكركـم﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ﴿واشكروا لي ولا تكفـرون﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان ، روي أن موسى عليه السـلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال له ربـه : «تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتنـي فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني»[1] ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية ، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿يا أيهـا الذين آمنـوا استعينوا بالصبـر والصـلاة﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة ، فبالصبر تنالون كل فضيلة ، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي معهم بالنصر والمعونةوالحفظ والتأييد ﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم

(١) ابن كثير المختصر ١٤٢/١ .

أموات ﴿بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون﴾ أي بل هم أحياءٌ عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك لأنهم في حياةٍ برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات﴾ أي ولنختبرنكم بشيءٍ يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع ، وذهاب بعض الأموال ، وموت بعض الأحباب ، وضياع بعض الزروع والثمار ﴿وبشر الصابرين﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم ثم بيّن تعالى تعريف الصابرين بقوله ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد للّه يفعل بهم ما يشاء ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله ، وهم المهتدون إلى طريق السعادة .

البَلاَغَة : ١ - بين كلمتي ﴿أرسلنا﴾ و﴿رسولاً﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - قوله ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ بعد قوله ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب) .

٣ - ﴿أموات بل أحياء﴾ فيه إيجاز بالحذف أي لا تقولوا هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق)

٤ - التنكير في قوله ﴿بشيء من الخوف﴾ للتقليل أي بشيء قليل .

٥ - ﴿صلوات من ربهم ورحمة﴾ التنوين فيهما للتفخيم ، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿ربهم﴾ لإظهار مزيد العناية بهم .

٦ - ﴿هم المهتدون﴾ صيغة قصر وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف .

الفَوَائِد : الأولى : روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « ما أصابتني مصيبة إلا وجدتُ فيها ثلاث نعم : الأولى : أنها لم تكن في ديني ، الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت ، الثالثة : أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير ثم تلا قوله تعالى :﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾» .

الثانية : قال ﷺ (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون :نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون نعم ، فيقول : فماذا قال عبدي ؟ فيقولون حَمِدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمُّوه بيتَ الحمد) .[1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله . . إلى . . ولا هم ينظرون﴾ من آية (١٥٨) إلى نهاية آية (١٦٢) .

(١) أخرجه أحمد والترمذي .

المنَاسَبَة : لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، أعقب ذلك ببيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله ، ثم نبّه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمانه ، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى ، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار .

اللغَة : ﴿شعائر الله﴾ جمع شعيرة وهي في اللغة : العلامة ومنه الشّعار ، وأشعر الهَدْي جعل له علامة ليعرف بها ، والشعائر : كلّ ما تعبّدنا الله به من أمور الدين كالطواف والسعي والأذان ونحوه . ﴿حجّ﴾ الحجُّ في اللغة : القصد ، وفي الشرع : قصد البيت العتيق لأداء المناسك من الطواف والسعي ﴿اعتمر﴾ العمرة في اللغة : الزيارة ثم صار علماً لزيارة البيت للنُّسك ﴿جُنَاح﴾ الجُناح : الميل إلى الإثم وقيل : هو الإثم نفسه سمي به لأنه ميل إلى الباطل يقال : جنح إلى كذا إذا مال قال ابن الأثير وأينما ورد فمعناه الإثم والميل ﴿يكتمون﴾ الكتمان : الإخفاء والستر ﴿يُنظرون﴾ يُمهلون .

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ

التفسِير : ﴿إن الصفا والمروة﴾ اسم لجبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿من شعائر الله﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبَّدنا الله بها ﴿فمن حجّ البيت أو اعتمر﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما ، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام ، فاسعوا أنتم للّه رب العالمين ، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿ومن تطوّع خيراً﴾ أي من تطوّع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه ، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلاً ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء ، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿من بعد ما بيناه للناس في الكتاب﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله تعالى ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ أي أولئك الموصوفون بقبيح الأعمال ، الكاتمون لأوصاف الرسول ، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا ، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان ، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿وأنا

عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

التـواب الرحيـم﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم ، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿إن الذيـن كفـروا وماتوا وهم كفـار﴾ أي كفروا بالله واستمرّوا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿أولئك عليهم لعنـة الله والملائكة والنـاس أجمعين﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعاً ، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿خالديـن فيهـا﴾ أي خالدين في النار ـ وفي إضمارها تفخيم لشأنها ـ ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخف عنهم طرفة عين ﴿لا يُفتّر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ ﴿ولا هم يُنظرون ﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا .

سَبَبُ النّزول : عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾[(١)] .

البَــلاَغَـــة : ١ ـ ﴿من شعائر الله﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف .

٢ ـ ﴿شاكر عليم ﴾ أي يثيب على الطاعة قال أبو السعود : عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز .

٣ ـ ﴿يلعنهم الله﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل« نلعنهم » ولكن في إظهار الاسـم الجليل ﴿ يلعنهم الله ﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب .

٤ ـ ﴿يلعنهم اللاعنون﴾ فيه جناس الاشتقاق .وهو من المحسنات البديعية .

٥ ـ ﴿خالدين فيها﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها .

٦ ـ ﴿ولا هم ينظرون﴾ إيثار الجملة الإسمية لإفادة دوام النفي واستمراره .

الفَــوَائِــد : الأولى : كان على الصفا صنم يقال له « إساف » وعلى المروة صنم يقال له « نائلة » فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجـاهلية ولـذلك تحرجـوا من الطواف لهذا السبب فنزلت الآية تبيّن أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام .

الثانية : الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان ، وهذا المعنى محالٌ على الله إذ ليس

(١) أخرجه البخاري وانظر الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٥٩ .

لأحد عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حمله العلماء على الثواب والجزاء أي أنه تعالى يثيبه ولا يضيع أجر العاملين.أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شكر يليق بجلاله وكماله.

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . . إلى . . وما هم بخارجين من النار﴾ من آية (١٦٣) إلى نهاية (١٦٧).

المناسبة : لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية ، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم ، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم بالعالم السفلي ، ثم بتعاقب الليل والنهار ، ثم بالسفن التي تمخر عباب البحار ، ثم بالأمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس ، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة ، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان وختم ذلك بالأمر بالتفكر في بدائع صنع الله ، وإعمال العقل في جميل خلقه ، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر ، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبّر الحكيم .

اللغة : ﴿وإلهكم﴾ الإله : المعبود بحقٍ أو باطل والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿الفُلْك﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿وبثّ﴾فرَّق ونشر ومنه ﴿كالفراش المبثوث﴾ ﴿دابة﴾ الدابة في اللغة : كل ما يدب على الأرض من إنسانٍ وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويداً وقد خصّه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾ فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿تصريف الرياح﴾ الرياح : جمع ريح وهي نسيم الهواء ، وتصريفُها تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحةً للنبات وعقياً ﴿المسخر﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿أنداداً﴾ جمع نِدّ وهو المماثل والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿الأسباب﴾ جمع سبب وأصله الحبل والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصداقة ﴿كرَّة﴾ الكرَّة : الرَّجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿حسرات﴾ جمع حسْرة وهي أشد الندم على شيء فائت وفي التنزيل ﴿أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ .

سَبَبُ النّزول : عن عطاء قال : أنزلت بالمدينة على النبيﷺ ﴿وإلهكم إله واحد﴾ فقالت كفار قريش بمكة كيف يسعُ النّاسَ إلهٌ واحد ؟ فأنزل الله تعالى ﴿إنّ في خلق السموات والأرض . . . إلى قوله لآيات لقومٍ يعقلون﴾[1] .

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٥ والقرطبي ٢/ ١٩١ .

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

التفسير : ﴿وإلهكم إله واحد﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد ، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مُولي النعم ومصدر الإحسان **﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي إن في إبداع السموات والأرض بما فيهما من** عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم ، يأتي الليل فيعقبه النهار ، وينسلخ النهار فيعقبه الليل ، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿والفُلْك التي تجري في البحر﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرةٌ بالأثقال ﴿بما ينفع الناس﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار ، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿وبثّ فيها من كل دابة﴾ أي نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب ، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿وتصريف الرياح﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً ، حارة وباردة ، وليّنة وعاصفة ﴿والسحاب المسخّر بين السماء والأرض﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله ، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبُّه على الأرض قطرات قطرات ، قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض[١] ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك ، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم . ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أنداداً أي رؤساء وأصناماً ﴿يحبونهم كحب الله﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿والذين آمنوا أشدُّ حباً لله﴾ أي حب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذْ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعدّ لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ أي وأنّ عذاب الله شديد أليم وجواب

(١) البحر المحيط ١/ ٤٦٧ .

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

« لـو » محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذيـن اتَّبعوا﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿ورأوا العذاب وتقطعت بهـم الأسباب﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهـم الروابط وزالت المودّات ﴿وقال الذيـن اتَّبعـوا لو أنَّ لنا كرَّة فنتبرأ منهـم﴾ أي تمنّى الأتباع لو أنّ لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل ﴿كما تبرءوا منّـا﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب . . قال تعالى ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم﴾ أي أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسراتٍ تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿وما هـم بخارجيـن من النار﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار ، بل هم في عذاب سرمدي وشقـاء أبدي .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿وإلهكم إله واحد﴾ ورد الخبر خالياً من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القـاطعـة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع .

٢ ـ ﴿ لآيات﴾ التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة .

٣ ـ ﴿كحب الله﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

٤ ـ ﴿أشدُّ حباً لله﴾ التصريح بالأشدّية أبلغ من أن يقال « أحبُّ لله » كقوله ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ مع صحة أن يقال : أو أقسى .

٥ ـ ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ﴿ولو يرون﴾ لإحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح .

٦ ـ في قوله ﴿رأوا العذاب﴾ و﴿تقطعت بهم الأسباب﴾ من علم البديع ما يسمى بـ « الترصيع » وهو أن يكون الكلام مسجوعاً .

٧ ـ ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ الجملة إسمية وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود .

الفَوَائِد : الأولى : ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبيهاً على ما فيها من العبر واستدلالاً على الوحدانية من الأثر ،الأول : خلق السموات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر ،الثاني : الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر ،الثالث : اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان ،الرابع : السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة

بالأثقال والرجال تجري بها الريح مقبلةومدبرة،الخامس : المطر الذي جعله الله سبباً لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار،السادس : ما بثّ في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان،السابع : تصريف الرياح والهواءُ جسم لطيفٌ وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويخرب البنيان العظيم وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض،الثامن : السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار .

الثانية : ورد لفظ الرياح في القرآن مفردة ومجموعة ، فجاءت مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب كقوله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ وقوله ﴿وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ وجاءت مفردة في العذاب كقوله ﴿بريحٍ صرصرٍ عاتية﴾ وقوله ﴿الريح العقيم﴾ وروى أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً . . إلى . . لفي شقاقٍ بعيد﴾ من آية (١٦٨) إلى نهاية آية (١٧٦).

المناسبة : لمّا بيّن تعالى التوحيد ودلائله ، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين ، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن ، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام ، لأنه تعالى رب العالمين ، فإحسانه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبرٍّ وفاجر ، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جلّ وعلا والأكل من الطيبات التي أباحها الله ، واجتناب ما حرّمه الله من أنواع الخبائث .

اللغة : ﴿خطوات الشيطان﴾ جمع خُطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار ﴿السُّوء﴾ أصل السُّوء ما يسوء الإنسان أي يحزنه ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المآل ﴿الفحشاء﴾ ما يستعظم ويستفحش من المعاصي فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿ألفينا﴾ وجدنا ومنه ﴿وألفيا سيِّدها﴾ ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين﴾ أي وجدوا ﴿ينعق﴾ يصيح يقال : نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقاً إذا صاح بها وزجرها قال الأخطل :

فانعِقْ بضأنك يا جريرُ فإنما   منّتك نفسُك في الخلاء ضلالاً

﴿أُهلّ﴾ الإهلال : رفع الصوت يقال : أهلّ المحرم إذا رفع صوته بالتلبية ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند الولادة ، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزّى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿اضطُرّ﴾ أُلجىء أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿باغٍ ولا عادٍ﴾ الباغي من البغي والعادي من العدوان ، وهما بمعنى الظلم وتجاوز الحدّ ﴿يزكّيهم﴾ يطهرهم من التزكية وهي التطهير ﴿شقاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـٔٗا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْيٞ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ

التفسير : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطاباً في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إنه لكم عدوٌ مبين﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تناهى في القبح من الرذائل ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرّم عليكم فتحلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ أي وإذا قيل للمشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى في الردّ عليهم ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي أيتّبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء ، ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الوضوح والجلاء فقال تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد ،أو تدرك المعنى الذي يقال لها ، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون ، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الآذان ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ ولهذا قال تعالى ﴿صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ أي صمٌّ عن سماع الحق ، بكم أي خرسٌ عن النطق به عميٌ عن رؤيته فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون . وخلاصة المثل ـ والله أعلم ـ مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون

﴿ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ *

أحداً سواه ﴿إنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي ماحرّم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وما أهلّ به لغير الله﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقولهم باسم اللات والعزّى ﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ﴾ أي فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون ساعياً في فساد ، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن عباس : نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ ﴿ويشترون به ثمناً قليلاً﴾ أي يأخذون بدله عوضاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إنما يأكلون ناراً تأجّج في بطونهم يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أي لا يكلمهم كلام رِضىً كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ ﴿ولا يزكيهم﴾ أي يطهرهم من دنس الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم ؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب ﴿ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿التوراة﴾ ببيان الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لفي شقاق بعيد﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب ، مستوجب لأشدّ العذاب .

سبب النزول : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود : كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه فنزلت ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب . .﴾[1] الآية .

البلاغة : ١ - ﴿خطوات الشيطان﴾ استعارة عن الاقتداء به واتباع آثاره قال في تلخيص البيان :

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢٨ .

وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله[١] .

٢ ـ ﴿السوء والفحشاء﴾ هو من باب « عطف الخاص على العام » لأن السوء يتناول جميع المعاصي ، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي .

٣ ـ ﴿ومثل الذين كفروا﴾ فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه فقد شبه الكفار بالبهائم التي تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده .

٤ ـ ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ﴾ حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو « تشبيه بليغ » أي هم كالصم في عدم سماع الحق وكالعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن .

٥ ـ ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يفضي بهم إلى النار وقوله ﴿في بطونهم﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رضف جهنم ، وذلك أفظع سماعاً وأشد إيجاعاً .

٦ ـ ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ استعارة والمراد استبدلوا الكفر بالإيمان وقد تقدّم في أول السورة إجراء هذه الاستعارة .

الفـوائـد : الأولى : عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يا أيها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله : أدع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ! فقال يا سعد : أطبْ مطعمَك تكنْ مستجابَ الدعوة ، والذي نفسُ محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبَّلُ منه أربعين يوماً ، وأيمّا عبدٍ نبت لحمه من السُّحتِ والربا فالنارُ أولى به[٢] .

الثانية : قال بعض السلف : « يدخل في اتباع خطوات الشيطان كلُّ معصية لله ، وكل نذرٍ في المعاصي قال الشعبي : نذر رجلٌ أن ينحر ابنه فأفتاه مسروقٌ بذبح كبش وقال : هذا من خطوات الشيطان »[٣] .

الثالثة : قال ابن القيم في أعلام الموقعين عن قوله تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ قال : لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرّق ، فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار ـ في عدم فقههم وانتفاعهم ـ بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرّد الذي هو الدعاء والنداء ، وإن جعلته من التشبيه المفرّق : فالذين كفروا بمنزلة البهائم ، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها ، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق ، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق والله أعلم .

* * *

(١) تلخيص البيان ص ١١ . (٢) أخرجه الحافظ ابن مردويه . (٣) محاسن التأويل ٣/٣٦٨

قال الله تعالى : ﴿ليس البرَّ أن تولُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . إلى . . فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ من آية (١٧٧) إلى نهاية آية (١٨٢).

المنَاسَبَة : من هنا بداية النصف الثاني من السورة الكريمة على وجه التقريب ، ونصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين وبقبائح بني إسرائيل ، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام التشريعية الفرعية ، ووجه المناسبة أنه تعالى ذكر في الآية السابقة أنّ أهل الكتاب اختلفوا في دينهم اختلافاً كبيراً صاروا بسببه في شقاق بعيد ، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة ، وادّعى كلٌ من الفريقين ـ اليهود والنصارى ـ أن الهدى مقصور على قبلته ، **فردّ الله عليهم وبيّن أن العبادة وعمل البر ليس بتوجه الإنسان جهـة المشرق والمغـرب ، ولـكن بـطاعة** الله وامتثال أوامره وبالإيمان الصادق الراسخ .

اللغَـــة : ﴿البرَّ﴾ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير ﴿الرقاب﴾ جمع رقبة وهي في الأصل العُنقُ ، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس والمراد في الآية الأسرى والأرقاء ﴿البأساء﴾ الفقر ﴿الضرّاء﴾ السُّقم والوجع ﴿البأس﴾ القتال وأصل البأس في اللغة : الشدّة ﴿كتب﴾ فرض ﴿القصاص﴾ العقوبة بالمثل من قتل أو جرح مأخوذ من القصّ وهو تتبع الأثر ﴿وقالت لأخته قُصّيه﴾ أي اتبعي أثره ﴿القتلى﴾ جمع قتيل يستوي فيه المذكر والمؤنث يقال : رجل قتيل وامرأة قتيل ﴿الألباب﴾ العقول جمع لب مأخوذ من لبّ النخلة ﴿إثماً﴾ الإثم : الذنب ﴿جنفاً﴾ الجنف : العدول عن الحق على وجه الخطأ .

سَبَبُ النّزول : عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغيٌ وطاعةٌ للشيطان ، وكان الحيُّ منهم إذا كان فيهم منعة فقتل عبدُهم عبد آخرين قالوا لن نقتل به إلا حراً ، وإذا قتلت امرأةٌ منهم امرأةً من آخرين قالوا لن نقتل بها إلا رجلاً فأنزل الله ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾[1] .

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى

التفسِـــير : ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغـرب﴾ أي ليس فعلُ الخير وعمل الصالح محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب ﴿ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ولكنَّ البرَّ الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿والملائكة والكتاب والنبيّين﴾ أي وأن يؤ من بالملائكة والكتب والرسل ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم

---
(١) الدر المنثور ١/١٧٣ .

ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ

أولى بالمعروف ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم ، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله ﴿والسائلين وفي الرقاب﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي وأتى بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله وهو منصوب على المدح ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى ، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيراتٍ حسان . ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان ﴿الحرُّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به ، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به ، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى ، مثلاً بمثلٍ ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني ، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء ﴿فمن عُفي له من أخيه شيء﴾ أي فمن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء ، بأن ترك وليُّه القود وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية ﴿فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان﴾ أي فعلى العافي اتباعٌ للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنفٍ ولا إرهاق ، وعلى القاتل أداءٌ للدية إلى العافي ـ ولي المقتول ـ بلا مطل ولا بخس ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم ، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفعٌ لأولياء القتيل ، وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة ، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل ، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ أي ولكم ـ يا أولي العقول ـ فيما شرعت من القصاص حياةٌ وأيُّ حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قُتل بها يرتدع وينزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتُحفظ حياة الناس ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي فرض عليكم

وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالاً كثيراً ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ أي وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين ﴿بالمعروف حقاً على المتقين﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء ، حقاً لازماً على المتقين لله وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث ﴿فمن بدّله بعدما سمعه﴾ أي من غيَّر هذه الوصية بعد ما علمها من وصيّ أو شاهد ﴿فإنما إثمه على الذين يبدّلونه﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدّلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إن الله سميع عليم﴾ فيه وعيد شديد للمبدّلين ﴿فمن خاف من موص جنفاً﴾ أي فمن علم أو ظنَّ من الموصي ميلاً عن الحق بالخطأ ﴿أو إثماً﴾ أي ميلاً عن الحق عمداً ﴿فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾ أي أصلح بين الموصي والموصَى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح .

البلاغة : ١ ـ ﴿ولكنَّ البرَّ من آمن﴾ جعل البرُّ نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون : السخاء حاتم ، والشعر زهيرٌ أي أن السخاء سخاء حاتم ، والشعر شعر زهير ، وعلى هذا خرّجه سيبويه حيث قال في كتابه قال جلّ وعز : ﴿ولكنَّ البرَّ من آمن﴾ وإنما هو ولكنَّ البر برُّ من آمن بالله انتهى[1] ونظير ذلك أن تقول : ليس الكرم أن تبذل درهماً ولكنَّ الكرم بذل الآلاف فلا يناسب ولكنَّ الكريم من يبذل الآلاف .

٢ ـ ﴿وفي الرقاب﴾ إيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى ، وفي لفظ الرقاب « مجاز مرسل » حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٣ ـ ﴿والصابرين في البأساء﴾ الأصل أن يأتي مرفوعاً كقوله ﴿والموفون بعهدهم﴾ وإنما نصب على الاختصاص أي وأخصُّ بالذكر الصابرين وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإذا ذُكرت صفاتٌ للمدح أو الذم وخولف الإعراب في بعضها فذلك تفننٌ ويسمى قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه .

٥ ـ ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلاً ماضياً « صدقوا » لإفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر ، وأتى بخبر الثانية في جملة اسمية ﴿أولئك هم المتقون﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجدداً بل صار كالسجية لهم ومراعاة للفاصلة أيضاً .

٦ ـ ﴿حقاً على المتقين﴾ ذكر المتقين من باب الإلهاب والتهييج .

(١) البحر المحيط ٢/٣ .

٧ ـ الطباق بين ﴿اتباعٌ﴾ و﴿أداء﴾ وبين ﴿الحر﴾ و﴿العبد﴾ .

الفـوائـد : الأولى : في ذكر الأخوة تعطفٌ داع إلى العفو فقد سمّى الله القاتل أخاً لولي المقتول ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ تذكيراً بالأخوَّة الدينية والبشرية حتى يهزّ عطف كل واحد منهما إلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان .

الثانية : كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية ، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص ، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيرّها بين القصاص والدية والعفـو ، وهـذا من يسر الشـريعة الغراء التي جاء بها سيِّد الأنبياء ﷺ .

الثالثة : اتفـق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ولكم في القصـاص حياة﴾ بالغة أعلى درجـات البلاغة ، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم : القتل أنفى للقتل ، ولكنْ لورود الحكمة في القرآن فضلٌ من ناحية حسن البيان ، وإذا شئتَ أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاصُ وهـو القتـل عقوبـةً على وجـه التماثل ، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتلُ ، ومن القتل ما يكون ظلماً فيكون سبباً للفناء وتصحيحُ العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً ، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كرر فيه لفظ القتل فمسَّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية ، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة الخ وقد عدّ العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية وقد ذكرها السيوطي في الإتقان فارجع إليه تجد فيه شفاء الغليل .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام . . إلى . . كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ من آية (١٨٣) إلى نهاية آية (١٨٧).

المنـاسـبَة : ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصـاص ثم عقبـه بحـكم الـوصية للوالـدين والأقربين ، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتنـاول جانـب الأحكام التشريعية ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيء عباده إلى منازل القـدس ومعارج المتقين الأبرار .

اللغـة : ﴿الصيام﴾ في اللغة : الإمساك عن الشيء قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم قال الشاعر :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غـير صائمةٍ   تحـت العَجـاج وأخـرى تعلك اللُّجما

وفي الشرع : الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النيّة ﴿يطيقونه﴾ أي يصومونه بعسر ومشقة قال الراغب : الطاقة اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة وشبِّه بالطوق المحيط بالشيء[1] ﴿فدية﴾ ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره ﴿شهر﴾ من الاشتهار وهو الظهور ﴿رمضان﴾ من الرّمض وهو شدة الحر والرمضاء شدة حر الشمس وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها ﴿الرفث﴾ الجماع ودواعيه وأصله قولُ الفحش ثم كنّي به عن الجماع قال الشاعر :

ويُرَيْن من أُنس الحديثِ زوانياً ... وبهنَّ عن رفث الرجال نِفَار

﴿تختانون﴾ قال في اللسان : خانه واختانه والمخانة مصدر من الخيانة وهي ضد الأمانة وسئل بعضهم عن السيف فقال : أخوكَ وإن خانك ﴿عاكفون﴾ الإعتكاف في اللغة : اللبث واللزوم وفي الشرع : المكث في المسجد للعبادة ﴿حدود الله﴾ الحدّ في اللغة : المنع وأصله الحاجز بين الشيئين المتقابلين وسميت الأحكام حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل .

سَبَبُ النّزول : روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبيﷺ فقالوا : يا محمد أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ الآية .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويُذْكي فيهم جذْوة الإيمان ﴿كُتِب عليكم الصيام﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿أياماً معدودات﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي أيام قلائل ، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمةً بكم ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدةٌ من أيام أُخَر﴾ أي من كان به مرضٌ أو كان مسافراً فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها ﴿وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فمن تطوّع خيراً﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فهو خيرٌ له﴾ ثم قال تعالى ﴿وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة ، ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان

(١) مفردات القرآن ص ٣١٢ .

لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ

الذي أبتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدة من أيام أُخر﴾ أي ومن كان مريضاً أو مسافراً فأفطر فعليه صيام أيام أخر ، وكرّر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿ولتكملوا العدّة﴾ أي ولتكملوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي ولتحمدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه . . ثم بيّن تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم ، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمانٍ وخشوع قلب ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين . . ثم شرع تعالى في بيان تتمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ أي أبيح لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ﴾ قال ابن عباس : هنَّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرماً في صدر الإسلام ثم نسخ ،روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ الآية ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ أي كلوا

فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دمتم معتكفين في المساجد ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كذلك يبيّن الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ أي يتقون المحارم .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿كما كتب﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى « مرسلاً مجملاً » .

٢ ـ ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من كان مريضاً فأفطر ، أو على سفرٍ فأفطر فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر .

٣ ـ ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ في تفسير الجلالين قدّره بحذف « لا » أي لا يطيقونه ، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة ، والطاقةُ اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة .

٤ ـ ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « طباق السلب » .

٥ ـ ﴿الرفث إلى نسائكم﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ « إلى » لتضمنه معنى الإفضاء وهو من الكنايات الحسنة كقوله ﴿فلما تغشّاها﴾ وقوله ﴿فأتوا حرثكم﴾ وقوله ﴿فالآن باشروهن﴾ قال ابن عباس : إن الله عز وجل كريم حليمٌ يكني[1] .

٦ ـ ﴿هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ﴾ استعارة بديعة شبّه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسه قال في تلخيص البيان : « المراد قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة[2] .

٧ ـ ﴿الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل والخيطان ههنا مجاز وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً ، ويكون سواد الليل منقضياً مولّياً ، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استسراراً ، وذهب الزمخشري إلى أنه من التشبيه البليغ .

الفَوَائِد : الأولى : روي عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود

(١) روائع البيان ١/ ١٩٠ ملخيص البيان ص ١٢ (٢) انظر الكشاف ١/ ١٧٥ .

والنصارى ، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك نزيد فيه فزادوا عشراً ، ثم بعد زمانٍ اشتكى[١] ملكهم فنذر سبعاً فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يوماً وهذا معنى قوله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾[٢] .

الثانية : قال الحافظ ابن كثير : وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ إرشادٌ إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث (إنّ للصائم عند فطره دعوة ما تُرد) وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألـك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي .

الثالثة : ظاهر نظم الجملة ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ أنهم سألوا عن الله ، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونـهافقوله في الجواب ﴿فإني قريب﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد ، ولـم يصدر الجواب بـ « قل » أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ بل تولّى جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم ، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات .

الرابعة : قال الإمام ابن تيمية « وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطّلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » وفي الصحيح(إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوّه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء .

الخامسة : عبّر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف ، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه : إن الله عزّ وجل كريم حليم يكْني .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . إلى . . وأحسنوا إن اللـه يحب المحسنين﴾ من آية (١٨٨) إلى نهاية آية (١٩٥).

المنَاسَبَة : لما بيّن تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقّبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره ، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة جاءت الآيات الكريمة تبيّن أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات .

---

(١) اشتكى : أي مرضاً . (٢) التفسير الكبير ٥/ ٧٦ .

اللغـــة : ﴿الباطل﴾ في اللغة : الزائل الذاهب يقال : بطل الشيء بطولاً فهو باطل وفي الشرع هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وتدلوا﴾ الإدلاء في الأصل : إرسال الدلو في البئر ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً يقال : أدلى بحجته أي أرسلها والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿الأهلة﴾ جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمراً ثم بدراً حين يتكامل نوره ﴿مواقيت﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميعاد بمعنى الوعد وقيل : الميقات منتهى الوقت ﴿ثقفتموهم﴾ ثقِفَ الشيءَ إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ، ورجل ثَقِفٌ سريع الأخذ لأقرانه قال الشاعر :

فإمّا تثقفوني فاقتلوني … فمن أثقفْ فليس إلى خلود

﴿التَّهلُكة﴾ الهلاكُ يقال هَلَك يهلِكُ هَلاكاً وتَهْلُكةً .

سَبَبُ النّزول : روي أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزلت ﴿يسألونك عن الأهلة . .﴾[1] الآية .

ثانياً :روي أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل بيتاً من بابه بل كان يدخل من نقب في ظهره ، أو يتخذ سُلّماً يصعد فيه فنزل قوله تعالى ﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ .

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

التفسير : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وأنتمَ تعلمون﴾ أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان ؟ ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعباداتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿ولكنَّ البرَّ من اتقى﴾ أي ولكنَّ العمل الصالح الذي يقرّبكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وأْتوا البيوت من أبوابها﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وقاتلوا في

(١) الرازي ٥/١٣٢ وأسباب النزول للواحدي ص ٢٨ .

ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار **﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾** أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى ، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة **﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾** وقيل نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله **﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾** أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم **﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾** أي شرّدوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة **﴿والفتنة أشد من القتل﴾** أي فتنة المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله ، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلكم لهم في الحرم ، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم **﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾** أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه **﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾** أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته والبادي بالشر أظلم **﴿كذلك جزاء الكافرين﴾** أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله **﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾** أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفّوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾** أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان **﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾** أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين ، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم ثم بيّن تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾** أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام ، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله[1] **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل **﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾** أي

---

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن دخولها ، وكان ذلك لما صدَّ الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبيه في شهر ذي القعدة .

راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ أي أنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الانفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه : لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين .

البـــلاغـــة : ١ - ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ هذا النوع من البديع يسمى « الأسلوب الحكيم » فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لمَ يبدو صغيراً ثم يزداد حتى يتكامل نوره ؟ فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول : كـان الأولـى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره ، وهـذا ما يسميه علماء البلاغة « الأسلوب الحكيم »

٢ - ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره : هتكُ حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر الحرام ويسمى حذف الإيجاز .

٣ - ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ سمّي جزاء العدوان عدواناً من قبيل « المشاكلة » وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ قال الزجاج : العرب تقول ظلمني فلان فظلمته أي جازيته بظلمه .

فـــائـــدة : لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة « سبيل الله » وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة .

تـــنبيـــه : كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ « قل » بلا فاء إلا في طه ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ فقد وردت بالفاء ، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً[1] .

فـــائـــدة : روي أن رجلاً من المسلمين حمـل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس : سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقلنا : لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم .

(١) الفتوحات الإلهية ١/١٥٢

قال الله تعالى :﴿وأتموا الحج والعمرة لله . . إلى . . واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾
من آية (١٩٦) إلى نهاية آية (٢٠٣).

المناسبة : لمّا ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام ، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام ، وأمّا آيات القتال فقد ذكرت عَرَضاً لبيان حكمٍ هام وهو بيان الأشهر الحرم والقتال فيها وفيا لو تعرّض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم ردُّ العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم ؟ فقد وردت الآيات السابقة تبيّن حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بيّنت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصدّه المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لمّا أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبيّن أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان ، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الإرتباط بين الآيات السابقة واللاحقة .

اللغة : ﴿أحصرتم﴾ الإحصار : معناه المنع والحبس يقال حَصَرَه عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه قال الأزهري : حُصر الرجلُ في الحبس ، وأُحصر في السفر من مرضٍ أو انقطاعٍ به ﴿الهَدْيُ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿محلّه﴾ المحِلُّ : الموضع الذي يحل به نحر الهَدْي وهو الحرم أو مكان الإحصار للمحْصَر ﴿النُّسك﴾ جمع نسيكة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿جناح﴾ إثم وأصله من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿أفضتم﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصباً ومعنى ﴿أفضتم من عرفات﴾ أي دفعتم منها بقوة تشبيهاً بفيض الماء . ﴿خلاق﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تحشرون﴾ تجمعون للحساب .

سبب النزول : أولاً : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عز وجل ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[1] .

ثانياً : وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمْس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيّه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها ، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾[2]

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ

التفسير : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ أي أدوهما تامين بأركانهما وشروطهما لوجه الله تعالى

(١) (٢) اسباب النزول ١/ ٣٢ للواحدي .

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا﴾

﴿فإن أحصرتـم فما استيسـر من الهَدْي﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرض أو عدو وأردتـم التحلل فعليكـم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرةٍ أو شاة **﴿ولا تحلقـوا رءوسكم حتى يبلـغ الهديُ محلَّه﴾** أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار **﴿فمن كان منكم مريضـاً أو به أذى من رأسـه ففدية من صيام أو صدقةٍ أو نسك﴾** أي فمن كان منكم معشر المحرمين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلـق ، أو كان به أذى من رأسـه كقمـل وصداع فحلق في الإحرام ، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة آصع على ستة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة **﴿فإذا أمنتـم﴾** أي كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعد الإحصار آمنين **﴿فمن تمتـع بالعمرة إلى الحـج فما استيسر من الهدي﴾** أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها ، فعليه ما تيسّر من الهدي وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى **﴿فمن لم يجـد فصيــام ثلاثة أيام في الحج وسبعــةٍ إذا رجعتم﴾** أي من لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه **﴿تلـك عشـرة كاملـة﴾** أي عشرة أيام كاملة تجزىء عن الذبح وثوابها كثوابه من غير نقصان **﴿ذلـك لمن لم يكـن أهله حاضري المسجـد الحرام﴾** أي ذلك التمتع أو الهَدْي خاص بغير أهل الحرم ، أما سكّان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي **﴿واتقوا الله واعلمـوا أن اللـه شديد العقـاب﴾** أي خافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره . ثم بيّن تعالى وقت الحج فقال **﴿الحج أشهـر معلومـات﴾** أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي شوال وذو القعده وعشرٌ من ذي الحجة **﴿فمن فـرض فيهـن الحـج﴾** أي منْ ألزم نفسه الحجَّ بالإحرام والتلبية **﴿فلا رفث ولا فسـوق ولا جدال في الحج﴾** أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه ، فعليه أن يترك الشهوات ، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء **﴿وما تفعلوا من خـير يعلمْـه الله﴾** أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازيكم عليه الله خير الجزاء **﴿وتزودوا فإن خيـر الزاد التقـوى﴾** أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد **﴿واتقونِ يا أولـي الألبـاب﴾** أى خافون واتقـوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغـوا فضلاً من ربكـم﴾** أي لا حرج ولا إثـم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية . وقد كانوا يتأثمون من ذلك

مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ

فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة ، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين ، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي ثمّ انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة ، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون : نحن أهل الله وسكّان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون « الحُمْس » فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي استغفروا الله عمّا سلف منكم من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشدّ . قال المفسرون كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمروا أن يذكروا الله وحده ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همّه فيقول : اللهم أجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة و ما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر ، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة ، والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم الخ ﴿وقنا عذاب النار﴾ أي نجّنا من عذاب جهنم ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣)

يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿ومن تأخر فلا إثـم عليه﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث ـ وهو النفر الثاني ـ فلا حرج عليه أيضاً ﴿لمـن اتقى﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم .

البـــلاَغـَـة : ١ ـ ﴿يبلغ الهدي محِلَّه﴾ كناية عن ذبحه في مكان الإحصار .

٢ ـ ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضاً فحلق أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية .

٣ ـ ﴿وسبعةٍ إذا رجعتم﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب وهو من المحسنات البديعية .

٤ ـ ﴿تلك عشرةٌ كاملة﴾ فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب « الإطناب » وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها .

٥ ـ ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ ـ ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ صيغته نفيٌ وحقيقته نهيٌ أي لا يرفثْ ولا يفسقْ وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر ممّا لا ينبغي أن يقع أصلاً فإنَّ ما كان منكراً مستقبحاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة .

٧ ـ ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى « مرسلاً مجملاً » .

٨ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ وبين ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنياحسنة . .﴾الآية .

فـَـائِـــدَة : أصل النسك : العبادة ، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى .

فائدة ثانية : زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى :

إذا أنـت لم ترحـل بزادٍ من التقى ... ولاقيتَ بعـد الموت من قد تزودا
ندمـتَ على ألاّ تكون كمثله ... وأنـك لم تُرْصـدْ كما كان أرصدا

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا . . إلى . . والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ من آية (٢٠٤) إلى نهاية آية (٢١٢) .

المنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تُطهّر القلوب ، وتزكّي النفوس كالصيام ، والصدقة ، والحج ، وذكر أن من الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها ، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى ، أعقبها بذكر نموذجٍ عن الفريقين : فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان ، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن ، ثم حذّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان ، وبيّن لنا عداوته الشديدة .

اللغَة : ﴿ألدُّ﴾ اللَّدَدُ : شدة الخصومة قال الطبري : الألدُّ : الشديد الخصومة وفي الحديث (إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم) ﴿الحرث﴾ : الزرع لأنه يزرع ثم يحرث ﴿النسل﴾ الذرية والولد ، وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ وسمي نسلاً لأنه ينسل ـ يسقط ـ من بطن أمه بسرعة ﴿العزَّة﴾ الأنفة والحميَّة ﴿حسبه﴾ حسب اسم فعل بمعنى كافيه ﴿المهاد﴾ : الفراش الممهَّد للنوم ﴿يشري﴾ : يبيع ﴿ابتغاء﴾ طلب ﴿السِّلْم﴾ بكسر السين بمعنى الإسلام وبفتحها بمعنى الصلح ، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قال الشاعر :

دَعَوْتُ عشيرتي للسِّلْمِ حتى   رأيْتهُمْ تَولَّوْا مُدْبِرينا

﴿زللتم﴾ الزّلل : الانحراف عن الطريق المستقيم وأصله في القدم ثم استعمل في الأمور المعنوية ﴿ظلل﴾ جمع ظلّة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤية .

سَبَبُ النّزول : ١ ـ روي أن الأخنس بن شريق أتى النبيﷺ فاظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه ، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن ، ثم خرج من عند النبيﷺ فمرَّ بزرعٍ لقومٍ من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وقتل الحُمُر فأنزل الله تعالى فيه الآيات ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله . . ﴾ الآية . . . إلى قوله : ﴿وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . . ﴾[1] الآية .

٢ ـ وروي أن صهيباً الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال : يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً ، وايم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم ، قالوا جئتنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير ! ! فقال : أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلّون سبيلي ؟ قالوا نعم فدلهّم على ماله بمكة فلما قدم المدينة دخل على رسول اللهﷺ فقال له عليه السلام : (ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب) وأنزل الله عز وجل فيه ﴿ومن الناس من يَشْري نفسَه ابتغاء مرضاة الله . . ﴾[2] الآية .

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢١٥ وأسباب النزول ص ٣٤ .   (٢) نفس المرجع السابق .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ﴾

التفسير : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابك بخلابة لسانه وقوة بيانه ، ولكنه منافق كذّاب ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي في هذه الحياة فقط أما الآخرة فالحاكم فيها علاّم الغيوب الذي يطّلع على القلوب والسرائر ﴿ويُشْهِد الله على ما في قلبه﴾ أي يظهر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وهو ألدُّ الخصام﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فساداً ، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه « يعطيك من طرف اللسان حلاوة : ويروغ فيك كما يروغُ الثعلب» ﴿ويُهلك الحرث والنسل﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد ، فالحرث محل نماء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بها ، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر وذُكّر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح ، حملته الأنفة وحميَّةُ الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق ، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً ، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار ، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة.والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله ، طلباً لمرضاته ورغبةً في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه . . ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه ، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً ، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً فالإسلام كلٌ لا يتجزأ ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج

يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في خلقه وصنعه ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق[1] حيث تنشق السماء وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زجل من التسبيح يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ﴿وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير ، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً . والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه وهو أحكم الحاكمين . . ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ أي سلْ يا محمد بني إسرائيل ـ توبيخاً لهم وتقريعاً ـ كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ أي زينت لهم شهوات الدنيا ونعيمها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود . ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلةً ومكانة ، فهم في أعلى علّيين وأولئك في أسفل سافلين ، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي والله يرزق أولياءه رزقاً واسعاً رغداً ، لا فناء له ولا انقطاع كقوله ﴿يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله ﴿أن يأتيهم الله﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله ﴿واسأل القرية﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلانا وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى .

على من شاء مؤمناً كان أو كافراً ، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشيئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى .

البَلاَغَة : ١ - ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ ذكر لفظ الإثم بعد قوله العزة يسمى عند علماء البديع بـ « التتميم » لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة .

٢ - ﴿ولبئس المهاد﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء اللّينين .

٣ - ﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء إلاّ بعدها أي ما ينتظرون .

٤ - ﴿في ظلل من الغمام﴾ التنكير للتهويل فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها وقوله ﴿وقضي الأمر﴾ هو عطف على المضارع ﴿يأتيهم الله﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان .

٥ - ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ - ﴿زُيّن . . ويسخرون﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه مركوزاً في طبيعتهم وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿ويسخرون﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار .

تنبيه: قال ابن تيمية رحمه الله في رسالته التدمرية : « وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صحَّ عن رسولهﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ، إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسولهﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل ولا تكييفٍ ولا تمثيل ، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل : كيف يجيء سبحانه ؟ فليقل له : كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته » .

* * *

قال الله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة . . إلى . . أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ من آية (٢١٣) إلى نهاية آية (٢١٨) .

المنَاسَبَة : ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : فريق يسعى في الأرض فساداً ويُضل الناس بخلابة لسانه وقوة بيانه ، وفريق باع نفسه للحق يبتغي به رضى الله ولا يرجو أحداً سواه ، ولما كان لا بدّ من التنازع بين الخير والشر ، ولا بدَّ للحق من سيفٍ مصلتٍ إلى جانبه لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف مناضلين وشرع الجهاد دفعاً للعدوان وردعاً للظلم والطغيان .

اللغــة : ﴿بغياً﴾ البغيُ : العدوان والطغيان ﴿وزلزلوا﴾ مأخوذ من زلزلة الأرض وهو اضطرابها والزلزلة : التحريك الشديد ﴿كره﴾ مكروهٌ تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة : الكرهُ بالضم المشقة وبالفتح الإكراه والقهر ﴿صدٌّ﴾ الصدُّ : المنع يقال : صدّه عن الشيء أي منعه عنه ﴿يرتدد﴾ يرجع والردةُ الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب : الارتداد والردة : الرجوع في الطريق الذي جاء منه لكن الردَّة تختص بالكفر ، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾[1] ﴿حبطت﴾ بطلت وذهبت قال في اللسان : حبط عمل عملاً ثم أفسده وفي التنزيل ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي أبطل ثوابهم ﴿يرجون﴾ الرجاء : الأمل والطمع في حصول ما فيه نفعٌ ومصلحة[2] .

سبب النزول : بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليترصدوا عيراً لقريش فيها « عمرو بن الحضرمي » وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، شهراً يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معايشهم وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه . .﴾ الآية .

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ

التفسير : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلفوا وتنازعوا ﴿فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين﴾ أي بعث الله الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أي إنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أُنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلةٍ وجهل ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً من الكافرين للمؤمنين ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاءٍ وامتحان

(١) مفردات القرآن للراغب . (٢) لسان العرب مادة حبط .

أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴿٢١٤﴾ يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتمى والمسكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴿٢١٥﴾ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٢١٦﴾ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به

واختبار ﴿ولمّا يأتكم مثل الذين من قبلكم﴾ أي والحال لم ينلكم مثل ما نال من سبقكم من المؤمنين من المحن الشديدة ، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات ﴿مسَّتهم البأساء والضراء﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ ؟ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله ؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر لتناهي الشدة عليهم ، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة ، فإذا كان الرسل ـ مع علو كعبهم في الصبر والثبات ـ قد عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت منتهاها قال تعالى جواباً لهم ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ أي ألا فأبشروا بالنصر فإنه قد حان أوانه ﴿ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ ثم قال تعالى ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون ؟ وقد نزلت لمّا قال بعض الصحابة يا رسول الله : ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء ، ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئاً وفيه كل النفع والخير ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئاً وفيه كل الخطر والضرر عليكم ، فلعل لكم في القتال ـ وإن كرهتموه ـ خيراً لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر ، ولعل لكم في تركه ـ وإن أحببتموه ـ شراً لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه ؟ ﴿قل قتالٌ فيه كبير﴾ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله﴾ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرُهم بالله وصدُّهم عن

وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته ، كلُّ ذلك أعظم وزراً وذنباً عند الله من قتل من قتلتم من المشركين ، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أنَّ ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﴿ومن يرتددْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة .

البَلاَغَة : ١ - ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلفوا فبعث الله النبيين ودلّ على المحذوف قوله ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ .

٢ - ﴿أم حسبتم﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ففيه استفهام إنكاري .

٣ - ﴿ولمّا يأتكم﴾ لمّا تدل على النفي مع توقع وقوع المنفي كما قال الزمخشري والمعنى : لمّا ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا قال المبرد : إذا قال القائل : لم يأتني زيد فهو نفي لقولك أتاك زيد ؟ وإذا قال : لمّا يأتني فمعناه أنه لم يأتني بعد وأنا أتوقعه وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على المؤمنين متوقعاً منتظراً .

٤ - ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ في هذه الجملة عدة مؤكدات تدل على تحقق النصر أولاً : بدء الجملة بأداة الاستفتاح « ألا » التي تفيد التأكيد، ثانياً : ذكر « إنَّ » الدالة على التوكيد أيضاً، ثالثاً : إيثار الجملة

الإسمية على الفعلية فلم يقل « ستنصرون » والتعبير بالجملة الإسمية يفيد التأكيدرابعاً : إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء .

٥ ـ ﴿وهو كرهٌ لكم﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول « كرهٌ » مكان « مكروه » للمبالغة كقول الخنساء : فإنما هي إقبال وإدبار .

٦ ـ ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً . . وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « المقابلة » فقد قابل بين الكراهية والحب ، وبين الخير والشر .

٧ ـ ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ طباق بالسلب .

فـائـدة : عبّر تعالى بصيغة الواحد عن كتب النبيّين ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيّين وإن تعددت هي في لبِّها وجوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك . .﴾ الآية .

تـنبيـه : روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه مـا يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . . إلى . . والله غفور حليم﴾
من آية (٢١٩) إلى نهاية آية (٢٢٥).

المنـاسـبة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال ، وبيّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصرة الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجي ، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخُلق الكريم ، ولا بدّ للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائمها على أسس ٍمتينة وتبقى صرحاً شامخاً لا تؤثر فيه الأعاصير .

اللغـة : ﴿الخمر﴾ المسكر من الأشربة سميت خمراً لأنها تستر العقل وتغطيه ومنه خمّرتُ الإناء أي غطيته ﴿الميسر﴾ القمار وأصله من اليسر لأنه كسب من غير كدّ ولا تعب ، وقيل من اليسار لأنه سبب الغنى ﴿إثم﴾ الإثم : الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ « الإثم » لأن شربها سبب في الإثم قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي ... كذاك الإثم تذهب بالعقول

﴿العفو﴾ الفضل والزيادة على الحاجة ﴿أعنتكم﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة ، وأصل العنت : المشقة

﴿أَمَةٌ﴾ الأَمَةُ : المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرة وجمعها إماء ﴿المحيض﴾ مصدر بمعنى الحيض كالمعيش بمعنى العيش ، وأصل الحيض : السيلان يقال : حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي سالت ويقال للمرأة حائض وحائضة وأنشد الفراء : « كحائضةٍ يُزنى بها غيرَ طاهر » ﴿حرث﴾ الحرث : إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب وقال الجوهري : الحرث : الزرع ، والحارث الزارع ومعنى حرث أي مزرع ومنبتٌ للولد على سبيل التشبيه[1] ﴿عُرضة﴾ مانعاً وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرضةٌ ولهذا يقال للسحاب : عارض لأنه يمنع رؤية الشمس . ﴿اللغو﴾ الساقط الذي لا يعتد به سواءً كان كلاماً أو غيره ولغو الطائر : تصويته .

سَبَبُ النّزول : أ ـ جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبةٌ للعقل مسلبةٌ للمال فأنزل الله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . .﴾ الآية .

ب ـ عن ابن عباس قال : لمّا أنزل الله ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد واشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير . .﴾ الآية .

ج ـ عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم إمرأة أخرجوها من البيت فلم يؤ اكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى . .﴾ الآية .

* يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

التفسير : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ أي قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً عظيماً وإثماً كبيراً ومنافع مادية ضئيلة ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أي وضررهما أعظم من نفعهما فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر ، وما يجرُّه القمار من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين ، كلُّ ذلك محسوس مشاهد وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ أي ويسألونك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم ؟ قل لهم : أنفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات﴾ أي كما يبيّن لكم الأحكام يبيّن لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة﴾ أي لتتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو

(١) الصحاح للجوهري مادة حرث .

ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ

أصلح ، والعاقل من آثر ما يبقى على ما يفنى . ﴿**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير**﴾ أي ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أيخالطونهم أم يعتزلونهم ؟ فقل لهم : مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ﴿ **وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ أي إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين ، وأخوة الدين أقوى من أخوّة النسب ، ومن حقوق هذه الأخوّة المخالطة بالإصلاح والنفع ﴿**والله يعلم المفسد من المصلح**﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلاً بعمله ﴿**ولو شاء الله لأعنتكم**﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدَّد عليكم ولكنه يسّر عليكم الدين وسهّله رحمة بكم ﴿**إن الله عزيز حكيم**﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم فيما يشرّع لعباده من الأحكام ثم قال تعالى محذراً من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي ﴿**ولا تَنْكحوا المشركاتِ حتى يؤمنَّ**﴾ أي لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر ﴿**ولأمةٌ مؤمنة خير من مشركةٍ ولو أعجبتكم**﴾ أي ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة ، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿**ولا تُنْكِحوا المشركين حتى يؤمنوا**﴾ أي ولا تزوجوا بناتكم من المشركين ـ وثنيّين كانوا أو أهل كتاب ـ حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿**ولعبد مؤمن خير من مشركٍ ولو أعجبكم**﴾ أي ولأن تزوجوهنَّ من عبد مؤمنٍ خير لكم من أن تزوجوهن من حرّ مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال ﴿**أولئك يدعون إلى النار**﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿**والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه**﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿**ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكرون**﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب . . ثم بيّن تعالى أحكام الحيض فقال ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى**﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم ؟ فقل لهم : إنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة فيه أذى للزوجين ﴿**فاعتزلوا النساء في المحيض**﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿**ولا تقربوهنّ**

حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

حتى يَطْهُرن﴾ أي لا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن . والمرادُ التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة **﴿فإذا تَطَهَّرن فأتوهـنَّ من حيثُ أمركم الله﴾** أي فإذا تطَهَّرن بالماء فأتوهنَّ في المكان الذي أحله الله لكم ، وهو مكان النسل والولد القُبُــل لا الدبر **﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهريـن﴾** أي يحبُّ التائبين من الذنوب ، المتنزهين عن الفواحش والأقذار **﴿نساؤكـم حرثلكم فأتوا حرثكـم أنّى شئتم﴾** أي نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكوّن الولد ، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره قال ابن عباس : « اسق نباتك من حيث ينبت » ومعنى **﴿أنّى شئتم﴾** أي كيف شئتم قائمةً وقاعدةً ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث « الفرج » وهو ردٌّ لقول اليهود : إذا أتى الـرجل امـرأته في قُبُلهـا من دبرها جاء الولد أحول **﴿وقدّموا لأنفسكم﴾** أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة **﴿واتقوا اللـه واعلمـوا أنكـم ملاقوه﴾** أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم **﴿وبشر المؤمنين﴾** أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾** أي لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير فتتعللوا باليمين بأن يقول أحـدكم : قد حلفتُ بالله ألاّ أفعله وأريد أن أبرّ بيميني بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم[1] قال ابن عباس : لا تجعلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير **﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحـوا بين النـاس﴾** أي لا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في «عبد الله بن رواحة» حين حلف ألا يكلّم ختنه « النعمان بن بشير » ولا يصلح بينه وبين أخته **﴿والله سميع عليم﴾** أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم . . ثم قال تعـالى **﴿لا يؤاخذكـــم اللـه باللـغـو في أيمانـكـم﴾** أي لا يؤاخذكـم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم : بلى والله ، ولا والله لا يقصد به اليمين **﴿ولكن يؤاخذكـم بما كسبتم قلوبكـم﴾** أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الإيمان إذاحنثتم فيها **﴿والله غفـو ر حليـم﴾** أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة .

---

(١) وقيل المعنى : لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لأيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أوكثير ، عظيم أو حقير إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا فإن الحلاّف لا يكون براً ولا تقياً .

البَـــلاَغَــة : ١ - ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر .

٢ - ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ « الإطناب » .

٣ - ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجملٌ .

٤ - ﴿المفسد من المصلح﴾ في الآية طباقٌ بين كلمة « المفسد » و « المصلح » وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة « النار » وكلمة « الجنة » .

٦ - ﴿قل هو أذى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً وأصله الحيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم : عليٌ أسد .

٧ - ﴿ولا تقربوهن﴾ كناية عن الجماع .

٨ - ﴿نساؤكم حرث﴾ على حذف مضاف أي موضع حرث أو على سبيل التشبيه فالمرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات الخارج ، فالحرثُ بمعنى المحترث سمي به على سبيل المبالغة .

الفَــوَائِــد : الأولى : تسمى الخمر أم الخبائث لأنها سبب في كل فعل قبيح ، روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبد فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة ، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت : إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام ، قال فاسقيني من هذه الخمر كأساً فسقته كأساً فقال : زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه» .

الثانية : كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال ؟ والجواب أن المراد بالمنافع في الآية « المنافع المادية » حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش ويحتمل أن يراد بالنفع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبّر عنها الشاعر بقوله :

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأُسْداً ما ينهنهنا اللقاء

قال القرطبي : وشارب الخمر يصير ضُحكةً للعقلاء فيلعب ببوله وعذرته وربما يمسح وجهه حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ورؤي بعضهم

والكلب يلحس وجهه وهو يقول : أكرمك الله كما أكرمتني[١]

الثالثة : قال الزمخشري : ﴿فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أمركم الله﴾ ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة ، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة ، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر .. إلى .. وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون﴾ من آية (٢٢٦) إلى نهاية آية (٢٣٠).

المناسبة : ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمة وتحلُّ عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر ، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل ، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع ، وابتدأ من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبّه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدّين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص ، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم ، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرّم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات ، ثم بيّن في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانها فذكر منها الإيلاء ، والطلاق ، والخلع وبيّن العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض بنيان الأسرة .

اللغة : ﴿يؤلون﴾ الإيلاء لغة : الحلف يقال : آلى يؤلي إيلاءً قال الشاعر :

فآليت لا أنفك أحدو قصيدةً تكون وإياها بها مثلاً بعدي

وفي الشرع : اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تربص﴾ التربص : الانتظار ومنه ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا ﴿فاءوا﴾ الفيء : الرجوع ومنه قيل للظلّ فيءٌ لأنه يرجع بعد أن تقلّص قال الفراء : العرب تقول فلان سريع الفيء أي سريع الرجوع بعد الغضب قال الشاعر :

ففاءت ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضياً

﴿قروء﴾ جمع قرء اسم يقع على الحيض والطهر فهو من الأضداد وأصل القرء : الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في القاموس : القَرْءُ بالفتح ويضم : الحيضُ والطهرُ والوقت ، وجمع الطهر قروءٌ ، وجمع الحيض أقراءٌ ﴿بعولتهن﴾ جمع بعل ومعناه الزوج ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ والمرأة بعلة ﴿درجة﴾ الدرجة : المنزلة الرفيعة ﴿الطلاق﴾ مصدر طلقتُ المرأة ومعنى الطلاق : حلٌّ عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخلية يقال : ناقة طالق أي مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راعي ، فسميت المرأة المخلَّى سبيلها طالقاً لهذا المعنى ﴿تسريح﴾ التسريح : إرسال الشيء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من

(١) القرطبي ٣/٥٧ . (٢) الكشاف ١/٢٠٢ .

البعض ، وسرَّح الماشية أرسلها قال الراغب : والتسريح في الطلاق مستعارٌ من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل[1] .

سَبَبُ النّزول : كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها ، فعمد رجل لامرأته فقال لها : لا آويك ولا أدعك تحلّين قالت : وكيف ؟ قال أطلّقك فإذا دنا مضيُّ عدتك راجعتك ، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿الطلاق مرتان . .﴾ الآية .

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ﴾

التفسِير : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ أي للذين يحلفون ألاّ يجامعوا نساءهم للإضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف ـ وهو كناية عن الجماع ـ أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ أي وإن صمّموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليم بنيّاتهم ، والمراد من الآية أن الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فبها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة ، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمضي تلك المدة عند أبي حنيفة ، وقال الشافعي : ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أو الطلاق فإن امتنع عنهما طلّق عليه الحاكم هذا هو خلاصة حكم الإيلاء . . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدّة والطلاق الشرعي ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ أي الواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار ـ على قول الشافعي ومالك ـ أو ثلاث حِيَض على قول أبي حنيفة وأحمد ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها ، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ ﴿ولا يحل لهنَّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبل أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة ﴿إن كنَّ يؤمنَّ بالله واليوم الآخر﴾ أي إن كنَّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه ، وهذا تهديد لهنَّ حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان لأنه أمر لا يُعلم إلاّ من جهتهنَّ ﴿وبعولتهنَّ أحق بردهنَّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي وأزواجهن أحقُّ بهنَّ في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن

(١) المفردات ص ٢٢٩ .

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه ﴿وللرجال عليهنَّ درجة﴾ أي وللرجال على النساء ميزةٌ وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليف لا تشريف لقوله تعالى ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي غالب ينتقم ممن عصاه حكيم في أمره وتشريعه ثم بيّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال ﴿الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان بألا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفّر الناس عنها ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ولو قليلاً ﴿إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله﴾ أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي فإن خفتم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها ممّا لم يشرعه الله ﴿ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي من خالف أحكام الله فقد عرَّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد ﴿فإن طلقها فلا تحلُّ له من بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي فإن طلّق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه ، بعد أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته كما صرّح به الحديث الشريف ، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد إنقضاء العدّة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ أي تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور .[١]

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٤٣ .

البَـــلاَغَــة : ١ ـ ﴿فإن الله سميع عليم﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد .

٢ ـ ﴿والمطلقات يتربصن﴾ خبرٌ في معنى الأمر وأصل الكلام وليتربصْ المطلقاتُ قال الزمخشري : وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيدٌ للأمر وإشعارٌ بأنه مما يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجوداً ، وبناؤه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيد[1] .

٣ ـ ﴿إن كنَّ يؤمنَّ بالله﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتهييج وتهويل الأمر في نفوسهن .

٤ ـ ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ فيه إيجاز وإبداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان ، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني ، ومن الثاني بقرينة الأول والمعنى : لهنَّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق ، وفيه من المحسنات البديعية أيضاً « الطباق » بين « لهنَّ » و « عليهنَّ » وهو طباقٌ بين حرفين .

٥ ـ ﴿فإمساكٌ بمعروف﴾ بين لفظ « إمساك » ولفظ « تسريح » طباقٌ أيضاً .

٦ ـ ﴿تلك حدود الله﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس ، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد .

٧ ـ ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ قصر صفة على موصوف .

فَـــائِــــدَة : أول خلعٍ كان في الإسلام في امرأة (ثابت بن قيس) أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : لا يجمع الله رأسي ورأسه شيءٌ أبداً ، والله ما أعيب عليه في خلقٍ ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام فقال لها عليه السلام : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ففرّق بينهما .

لَطِيفَــــة : روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إني لأحب أن أتزين لامرأتي كما تتزين لي لأن الله تعالى يقول ﴿ولهنَّ مثلُ الذي عليهن بالمعروف﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن . . إلى . . والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ من آية (٢٣١) إلى نهاية آية (٢٣٢) .

المُنَاسَبَة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضّح طريقته وشروطه وآدابه وتنهى عن الإيذاء والإضرار فوجه المناسبة إذاً ظاهر .

اللغَــــة : ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن من الانتهاء من العدة ﴿ضراراً﴾ أي بقصد الإضرار قال القفال : الضرّار هو المضارّة كقوله ﴿مسجداً ضراراً﴾ أي ليضاروا المؤمنين ﴿تعضلوهن﴾ العضل : المنع

(١) الكشاف ١/ ٢٠٥ .

والتضييق يقال : أعضل الأمر أي أشكل وضاقت فيه الحيل وداء عُضال أي عسير أعيا الأطباء قال الأزهري : وأصله من عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه[١] ﴿يوعظ به﴾ يوصى ويؤمر به ﴿أزكى﴾ أنمى وأنفع يقال : زكا الزرع إذا نما بكثرةٍ وبركة ﴿وأطهر﴾ الطهارة : التنزه عن الدنّس والمعاصي .

سَبَبُ النّزول :روي أن «معقل بن يسار» زوَّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطّاب فقال له : يا لُكَع « أي يا لئيم » أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها ! ! والله لا ترجع إليك أبداً فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك[٢] .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن

التفسير : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعياً وقارب انقضاء العدة ﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي فراجعوهنّ من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ، وفيه زجرٌ لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدّة يراجعها للإضرار بها ليطوّل عليها العدة لا للرغبة فيها ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أو ليكرهها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لانه عرّضها لعذاب الله ﴿ولا تتخذوا آيات الله هُزُواً﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهّرة ﴿يعظكم به﴾ أي يرشدكم ويذكّركم بكتابه وهدي رسوله إلى سعادتكم في الدارين ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فلا تعضلوهن

(١) تهذيب اللغة مادة عضل . (٢) رواه البخاري وانظر التاج ٤/ ٦٣ .

كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ أي فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ أي الاتعاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك ، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذرون .

البلاغة : ١ ـ ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن أُطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل لأنه لو انقضت العدة لما جاز له إمساكها والله تعالى يقول ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ .

٢ ـ ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لأن النعمة يراد بها نعم الله والكتاب والسنة من أفراد هذه النعم .

٣ ـ ﴿واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم﴾ بين كلمة « اعلموا » و« عليم » من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق .

٤ ـ ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ يراد بأزواجهن « المطلقين » لهن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان .

فائدة : قال الإمام الفخر : الحكمة في إثبات حق الرجعة أنّ الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشقُّ عليه المفارقة أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعةً من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين ، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين . . إلى . . ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ من آية (٢٣٣) إلى نهاية آية (٢٣٧) .

المناسبة : لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعَضْل ، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع لأن الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلّق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه وربما أضاعت الطفل أو حرمته الرضاع انتقاماً من الزوج وإيذاءً له في ولده ، لذلك وردت

(١) التفسير الكبير ٦/ ١٠٥ .

هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم ، ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدَّة فيه رعايةً لحق الزوج ، كما ذكر تعالى موضوع خطبة المرأة في حالة العدّة ، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أوكامل المهر بعد الفراق أو الطلاق .

اللغـــة : ﴿فصالاً﴾ الفِصال والفَصْل : الفطام سمي به لأن الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات قال المبرّد : الفِصال أحسن من الفصل لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينهما فِصال كالقِتال والضراب ﴿تشاور﴾ التشاور : استخراج الرأي ومثله المشاورة والمشورة مأخوذ من الشَّوْر وهو استخراج العسل ﴿يذرون﴾ يتركون وهـذا الفعـل لا يستعمـل منـه الماضي ولا المصـدر ﴿عرّضتـم﴾ التعريض : الإيماء والتلويح من غير كشفٍ وإظهار ،مأخـوذ من عرض الشيء أي جانبـه كقـول الفقـير للمحسن : جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خطبة﴾ بكسر الخاء طلب النكاح وبالضم الموعظة كخُطبة الجمعة والعيدين ﴿أكننتم﴾ سترتم وأضمرتم والإكنان : السرُّ والخفاء ﴿عُقدة النكاح﴾ من العقد وهو الشدُّ وفي المثل « يا عاقد اذكر حلاً » قال الراغب : العُقدة اسم لما يعقـد من نكاح أو يمـين أو غـيرهما ﴿حليم﴾ يمهل العقوبة فلا يعجّل بها للعاصي ﴿المقتر﴾ الفقير يقال : أقتـر الرجل إذا افتقر .

سَبَبُ النّزول : روي أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأةً من بني حنيفة ولم يسمّ لها مهراً ثم طلّقها قبل أن يمسَّها فنزلت الآية ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسُّوهنّ﴾ فقال له النبيﷺ (متِّعْها ولو بقلنسوتك)[1] .

* ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ

التفسيـــر : ﴿والوالدات يرضعـن أولادهنّ حولين كاملين﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهنّ لمدة سنتين كاملتين ﴿لمن أراد أن يتـم الرضاعة﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمـام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وعلى المولود له رزقهـن وكسوتهـن بالمعروف﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيـام ﴿لا تُكلَّـف نفسٌ إلا وسعهـا﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلّف نفساً إلا وسعها ﴿لا تضارّ والدةٌ بولدها ولا مولـودٌ له بولده﴾ أي لا يضرُّ الوالدان بالولد فيفرِّطا في تعهده ويقصِّرا في ما ينبغي له ، أو يضارَّ أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضرّ أباه بتربيته ، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتهـا في إرضاعـه ليغيظ أحـدهما صاحبه ، قاله مجاهد ﴿وعلى الوارث مثـلُ ذلـك﴾ أي وعلى الوارث مثلُ ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعـدم الإضرار بهـا والمراد به وارثُ الأب وقيل : وارثُ الصبـي ، والأول اختيار

---

(١) القرطبي ٣/٢٠٢ .

ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

الطبري ﴿فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعة لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر ، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً﴾ أي على النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يمكثن في العدّة أربعة أشهر وعشرة أيام حداداً على أزواجهنَّ وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها ، وضع الحمل لقوله تعالى ﴿ وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حملهنَّ﴾ ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنَّ بالمعروف﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهنَّ الشرع من الزينة والتعرض للخطّاب ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿ولا جناح عليكم فيما عرَّضتم به من خطبة النساء﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفّى عنهن أزواجهن في العدّة ، بطريق التلميح لا التصريح قال ابن عباس : كقول الرجل : وددتُ أن الله يسَّر لي امرأةً صالحة ، وإن النساء لمن حاجتي ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن ﴿علم الله أنكم ستذكرونهنَّ ولكن لا تواعدوهنَّ سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج ، فاذكروهنَّ ولكنْ لا تواعدوهنَّ بالنكاح سرّاً إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع ﴿ولا تعزموا عُقْدة النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجله﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدّة ﴿واعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿واعلموا أن الله غفورٌ حليم﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه . ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل

حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

المساس فقال ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنَّ أو تفرضوا لهنَّ فريضة﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس « الجماع » وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهراً ، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿ومتعوهنَّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ أي فإذا طلقتموهنَّ فادفعوا لهنَّ المتعة تطييباً لخاطرهن وجبراً لوحشة الفراق ، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر ، الموسر بقدر يساره ، والمعسر بقدر إعساره ، تمتيعاً بالمعروف حقاً على المؤمنين المحسنين ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهنَّ وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهنَّ مهراً معيناً فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمّى لهن لأنه طلاقٌ قبل المسيس ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدةُ النكاح﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلّقة حقها أو أسقط وليُّ أمرها الحق إذا كانت صغيرة ، وقيل : هو الزوج لأنه هو الذي يملك عُقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير ، وقال الزمخشري : القول بأنه الوليُّ ظاهر الصحة [١] ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ الخطاب عام للرجال والنساء قال ابن عباس : أقربهما للتقوى الذي يعفو. ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم ، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين ، فإذا كان الطلاق قد تمَّ لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة ووشائج القربى .

البَــلاَغَــة : ﴿والوالدات يرضعن﴾ أمرٌ أُخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه أي ليرضعن كالآية السابقة ﴿والمطلقات يتربصن﴾ .

٢ ـ ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تسترضعوا المراضع لأولادكم ، كما أن فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لأن ما قبله ﴿فإن أرادا فصالاً﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء .

٣ ـ ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ ذكر العزْم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح ، فإذا نهي عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى .

(١) هذا القول مروي عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري : وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بالطف بيان فانظرها في الكشاف ١/ ٢١٧ .

٤ - ﴿ما لم تمسوهنّ﴾ كنّى تعالى بالمسّ عن الجماع تأديباً للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به .

٥ - ﴿وأن تعفوا﴾ و﴿لا تنسوا الفضل﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب .

٦ - ﴿واعلموا أن الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة .

الفَوَائِد : الأولى : التعبير بلفظ « الوالدات » دون قوله « والمطلقات » أو النساء المطلقات لاستعطافهن نحو الأولاد ، فحصول الطلاق لهنَّ لا ينبغي أن يحرمهنَّ عاطفة الأمومة .

الثانية : أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كلٍ من الأبوين في قوله ﴿والدةٌ بولدها﴾ و﴿مولودٌ بولده﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه ، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين هذه أمه وذاك أبوه فمن حقهما أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار به .

الثالثة : الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إيحاش الطلاق قال ابن عباس : إن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب ، وإن كان موسراً متّعها بخادم .

الرابعة : روي أن الحسن بن علي متّع زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت المرأة « متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارق » وسبب طلاقه إيّاها ما روي أنه لما أصيب عليٌّ كرّم الله وجهه وبويع الحسن بالخلافة قالت له : لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين ! فقال : يُقتل عليٌّ وتظهرين الشماتة ؟ إذهبي فأنت طالق ثلاثاً ، فتلفعت بجلبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها بعشرة آلاف متعة وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت ذلك ، فلما أخبره الرسول بكى وقال : لولا أنني طلقتها ثلاثاً لراجعتها[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى .. إلى .. يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ من آية (٢٣٨) إلى نهاية آية (٢٤٢)

المُنَاسَبَة : توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة ، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بيّن بعد ذلك أمر الصلاة ، لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها ولهذا كان ﷺ إذا حزبه همٌ فزع إلى الصلاة فالطلاق يولّد الشحناء والبغضاء ، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية .

اللغَة : ﴿حافظوا﴾ المحافظة : المداومة على الشيء والمواظبة عليه ﴿الوسطى﴾ مؤنث

(١) القرطبي ٣/٢٠٢ .

الأوسط ، ووسط الشيء خيره وأعدلـه قال أعرابي يمدح الرسول ﷺ :

يا أوسـط النـاس طرّاً في مفاخرهم. وأكرم النـاس أمّـاً برّةً وأبا

﴿قانتين﴾ أصل القنوت في اللغة : المداومة على الشيء وقد خصّه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها على وجه الخشوع والخضوع قال تعالى ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾.﴿فرجالاً﴾ جمع راجل وهو القائم على القدمين قال الراغب : اشتُقّ من الرجل راجلٌ للماشي بالرجل ويقال : رجل راجلٌ أي قويٌ على المشي[١] ﴿ركباناً﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما .

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

التفسير : ﴿حافظـوا على الصلوات والصلاة الوسطـى﴾ أي واظبوا أيها المؤ منون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿وقوموا للّـه قانتين﴾ أي داوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع أي قوموا للّه في صلاتكم خاشعين ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبانـاً﴾ أي فإذا كنتم في خوفٍ من عدوٍ أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكـونوا تعلمـو ن﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله ﴿فإذا أطمأننتم فأقيمـوا الصـلاة﴾ والذكرُ في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان قال الزمخشري : المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة ﴿والذين يُتوفـو ن منكم ويذرو ن أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ أي والذين يموتون من رجالكم ويتركون زوجاتهم على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يُحتضروا بأن تُمتَّع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً ، يُنْفق عليهنَّ من تركته ولا يُخرجن من مساكنهن ـ وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسـهـن من معـروف﴾ أي فإن خرجـن مختـاراتٍ راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب والتعرض للخُطّاب ﴿والـلـه عزيز حكيـم﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملـكه حكيم في صنعـه ﴿وللمطلقـات متـاع

(١) مفردات الراغب ماده رجل .

بالمعروف حقاً على المتقين﴾ أي واجبٌ على الأزواج أن يمتِّعن المطلقات بقدر استطاعتهم جبراً لوحشة الفراق وهذه المتعة حقٌ لازم على المؤمنين المتقين للّه ﴿كذلك يبينّ الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبيّن الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها .

البَــلاَغَــة : ١ - ﴿الصلاة الوسطى﴾ عطف خاص على عام لبيان مزيد فضلها .

٢ - ﴿فإن خفتم﴾ ﴿فإذا أمنتم﴾ بين لفظ خفتم وأمنتم طباق وهو من المحسنات البديعية قال أبو السعود : وفي إيراد الشرطية بكلمة « إن » المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف ، وإيراد الثانية بكلمة « إذا » المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار[1] .

تــنبيــه : الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء ويقوي هذا ما ورد في الصحيحين (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً) وفي الحديث (الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله وماله) أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف . . إلى . . وإنك لمن المرسلين﴾ من آية (٢٤٢) إلى نهاية آية (٢٥٢) .

المنَـاسَـبَة : لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها ، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل ، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات ، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشد الحياة الكريمة ، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع ، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره ، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة ، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها ، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله .

اللغَــة : ﴿ألوف﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف ، ومعناه كثرة كاثرة وألوف مؤلفة ﴿حذر﴾ خشية وخوف ﴿يقبض ويبسط﴾ القبض: ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقتير والبسط ضدّه والمراد به التوسيع قال أبو تمام :

تعوَّد بسطَ الكفِّ حتى لو أنه ... دعاها لقبضٍ لم تجبْه أناملُه

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٨٠ .

﴿الملأ﴾ الأشراف من الناس سمّوا بذلك لأنهم يملأون العين مهابةً وإجلالاً ﴿فصل﴾ انفصل من مكانه يقال : فصل عن الموضع انفصل عنه وجاوزه ﴿مبتليكم﴾ مختبركم ﴿يظنون﴾ يستيقنون ويعلمون ﴿فئة﴾ الفئة : الجماعة من الناس لا واحد له كالرهط والنفر ﴿أفرغ﴾ أفرغ الشيء صبَّه وأنزله .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ

التفسير : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿حذر الموت﴾ أي خوفاً من الموت وفراراً منه ، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفاً ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم ، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم « جزقيل » فعاشوا بعد ذلك دهراً ، وقيل : هربوا من الطاعون فأماتهم الله قال ابن كثير : وفي هذه القصة عبرةٌ على أنه لا يغني حذرٌ من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصّرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويجحدون ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي قاتلوا الكفار لإعلاء دين الله ، لا لحظوظ النفس وأهوائها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم ، عليم بنيّاتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها ، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرّب أجلاً ولا يبعده ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير ، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافاً كثيرة ؟ لأنه قرضٌ لأغنى الأغنياء ربّ العالمين جل جلاله وفي الحديث (من يقرض غير عديم ولا ظلوم[1]) ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي يقتّر على من يشاء ويوسّع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً ﴿وإليه تُرجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك ؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام كما دلت عليه الآية ﴿إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ أي حين قالوا لنبيّهم « شمعون » ـ وهو من نسل

---

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول ، وانظر مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٢ .

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ

هارون[1] أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿قال هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا﴾ أي قال لهم نبيّهم : أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه ﴿قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي أيُّ سببٍ لنا في ألاّ نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد ؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿فلما كُتب عليهم القتالُ تولّوا إلا قليلاً منهم﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا ، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ، قال القرطبي : وهذا شأن الأمم المتنعِّمة المائلة إلى الدَّعة ، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جُبنت وانقادت لطبعها[2] ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصياناً لأمره تعالى ﴿وقال لهم نبيّهم إنَّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ أي أخبرهم نبيّهم بأنَّ الله تعالى قد ملَّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم ﴿قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي قالوا معترضين على نبيّهم كيف يكون ملكاً علينا والحال أننا أحقُّ بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا ؟ ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم﴾ أي أجابهم نبيّهم على ذلك الاعتراض فقال : إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم ، والعمدة في الاختيار أمران : العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة ، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب ، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد ، وقد خصّه الله تعالى منهما بحظ وافر قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علمٍ ، وشكلٍ حسن ، وقوةٍ شديدة في بدنه ونفسه[3] ، ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ أي يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرثٍ أو مال ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل عليمٌ بمن هو أهلٌ له فيعطيه إياه . . ولما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿وقال لهم نبيّهم إنَّ آية ملكه﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿أن يأتيكم التابوت﴾ أي يردَّ الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم ، وهو كما قال الزمخشري : صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿فيه سكينةٌ من

(١) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل . (٢) القرطبي ٣/ ٢٤٥ (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٤

ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

ربكم وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة﴾ أي في التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن في نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ أي خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفاً أخذ بهم في أرضٍ قفرة فأصابهم حر وعطشٌ شديد ﴿قال إن الله مبتليكم بنهر﴾ أي مختبركم بنهر وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ أي من شرب منه فلا يصحبني - وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب - ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ أي من لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي ﴿إلاّ من اغترف غرفة بيده﴾ أي لكن من اغترف قليلاً من الماء ليبلَّ عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك ، فأذن لهم برشفةٍ من الماء تذهب بالعطش ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ أي شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش قال السدي : شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقّى معه أربعة آلاف ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه﴾ أي لما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم اعتراهم الخوف فقال فريق منهم ﴿قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ أي قال الذين يعتقدون بلقاء الله وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت ﴿كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن الله﴾ أي كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشيئته ، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله ﴿والله مع الصابرين﴾ أي معهم بالحفظ والرعاية والتأييد ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده﴾ أي ظهروا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جيش جالوت المدرَّب على الحروب ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولاً : ربنا أفضْ علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك ﴿وثبت أقدامنا﴾ أي ثبتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة قال تعالى إخباراً عنهم ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابةً لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿وقتل داود جالوت﴾ أي وقتل داود ـ وكان في جيش المؤمنين مع طالوت ـ رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوة وعلّمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه قال ابن كثير : كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي لولا أن يدفع الله شرَّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة ، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ذو تفضل وإنعام على البشر حيث لم يمكّن للشر من الاستعلاء ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عز وجل .

البَلاغَة : قال أبو حيان : تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أموراً كثيرة منها الاستفهام الذي أُجري مجرى التعجب في قوله ﴿ألم تر إلى الذين﴾ والحذف بين ﴿موتوا ثم أحياهم﴾ أي فماتوا ثم أحياهم ، والطباق في قوله ﴿موتوا﴾ و﴿أحياهم﴾ وكذلك في قوله ﴿يقبض﴾ و﴿يبسط﴾ والتكرار في قوله ﴿فضل على الناس﴾ و﴿لكنَّ أكثر الناس﴾ والالتفات في ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله ﴿قرضاً حسناً﴾ شبّه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه ، والتجنيس المغاير في قوله ﴿فيضاعفه﴾ وقوله ﴿أضعافاً﴾[1] .

٢ ـ ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ فيه استعارة تمثيلية فقد شبّه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله ، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً .

الفَوَائِد : الأولى : أسند الاستقراض إلى الله في قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما أضاف الإحسان إلى المريض والجائع والعطشان إلى نفسه تعالى في قوله جلّ

(١) البحر المحيط ٢/ ٢٥٣ .

وعلا في الحديث القدسي « ابن آدم مرضتُ فلم تعدني » و « استطعمتك فلم تطعمني » و « استسقيتك فلم تسقني » الحديث الذي رواه الشيخان .

الثانية : روي أنه لما نزلت الآية الكريمة جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : وإنّ الله ليريد منّا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ! قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده قال : فإني قد أقرضتُ ربي حائطي - أي بستاني وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أُمَّ الدحداح قالت : لبّيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل[١] ، وفي رواية قالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها .

الثالثة : قال البقاعي : ولعلّ ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبي ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . . إلى . . والكافرون هم الظالمون﴾

من آية (٢٥٣) إلى نهاية آية (٢٥٤) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل ، وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين ، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل ، ذكر في هذه الآية أن المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر .

اللغة : ﴿درجات﴾ جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة السامية ﴿البيّنات﴾ المعجزات ﴿وأيدناه﴾ قويناه من التأييد بمعنى التقوية ﴿روح القدس﴾ القدس : الطهارة وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم ﴿خلة﴾ الخُلّة : الصداقة والمودة سميت بذلك لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها ومنه الخليل ﴿شفاعة﴾ مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عونه .

* تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

التفسير : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم يا محمد هم رسل الله حقاً ، وقد فضّلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿منهم من كلّم الله﴾ أي منهم من خصّه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أي ومنهم من خصّه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة ، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات﴾ أي

(١) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود . (٢) محاسن التأويل ٣/ ٦٥٠ .

ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى بن مريم ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم ، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا ، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿ولكنْ اختلفوا فمنهم من آمنَ ومنهم من كفر﴾ أي ولكنَّ الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم ، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿ولو شاءَ اللهُ ما اقتتلوا ولكنَّ الله يفعل ما يريد﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكنَّ الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة ، وكلٌّ ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إيّاه ، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعة﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمالٍ تقدمونه فيكون كالبيع ، ولا تجدون صَديقاً يدفع عنكم العذاب ، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله رب العالمين ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً ، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿تلك الرسل﴾ الإشارة بالبعيد لبعد مرتبتهم في الكمال .

٢ ـ ﴿منهم من كلّم الله ..﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل ويسمى هذا في البلاغة : التقسيم وكذلك في قوله ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ وبين لفظ « آمن » و« كفر » طباقٌ .

٣ ـ الإطناب وذلك في قوله ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ حيث كرر جملة ﴿ولو شاء الله﴾ .

٤ ـ ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ قصر صفة على الموصوف ، وقد أكدت بالجملة الإسمية وبضمير الفصل .

فَائِدَة : روي عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل « والظالمون هم الكافرون » ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إلا من عصمه الله .

تنبيه : يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الزمخشري حيث قال : أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون ، وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿ومن كفر﴾ مكان ﴿ومن لم يحج﴾ ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤ تون الزكاة﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . إلى . . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ من آية (٢٥٥) إلى نهاية آية (٢٥٧) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، وبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين ، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع ،فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعاً جاءوا بدعوة واحدة هي « دعوة التوحيد » فرسالتهم واحدة ودينهم واحد ، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه .

اللغة : ﴿الحي﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿القيوم﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سِنة﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قال الشاعر :

وسنان أقعده النعاس فرنّقت في عينه سِنةٌ وليس بنائم

﴿يؤوده﴾ يثقله ويتعبه ﴿العلي﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه ﴿إكراه﴾ الإكراه : حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿الطاغوت﴾ من الطغيان وهو كل ما يطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿الوثقى﴾ مؤ نث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق ﴿انفصام﴾ الإنفصام : الانكسار قال الفراء : الانفصام والانقصام لغتان وبالفاء أفصح وقال بعضهم : الفصم انكسار بغير بينونة والقصم انكسار ببينونة .

سبب النزول : كان لرجل من الأنصار ابنان تنصّرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفر من التجار يحملون الزيت ، فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي﴾[1] . الآية .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ

التفسير : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ أي هو الله جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ذو الحياة الكاملة ، الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ

(١) القرطبي ٣/ ٢٨٠

عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

والتدبير ﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم﴾ أي لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم كما ورد في الحديث (إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه)، ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في السموات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير: وهذا بيانٌ لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أعلمهم إيّاه على ألسنة الرسل ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ أي أحاط كرسيّه بالسموات والأرض لبسطته وسعته، والسمواتُ السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاة، وروي عن ابن عباس ﴿وسع كرسيه﴾ قال: علمه بدلالة قوله تعالى ﴿ربنا وسعتَ كل شيء رحمةً وعلماً﴾ فأخبر أن علمه وسع كل شيء[1] وقال الحسن البصري: الكرسي هو العرش قال ابن كثير: والصحيح أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السموات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله ﴿وهو الكبير المتعال﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله فقد تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿لا انفصام لها﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك

(١) قال ابن جرير: وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن ولأن أصل الكرسي العلم، ومنه يقال للعلماء كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير.

والضلال ﴿أولئك أصحـاب النار هـم فيها خالـدون﴾ أي ماكثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً .

البَـــلاَغَـــة : ١ ـ في آية الكرسي أنواعٌ من الفصاحة وعلم البيان منها حسنُ الافتتاح لأنها افتتحت بأجل أسماء الله تعالى ، وتكرار اسمه ظاهراً ومضمراً في ثمانية عشر موضعاً ، والإطناب بتكرير الصفات ، وقطعُ الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف ، والطباقُ في ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أفاده صاحب البحر المحيط .

٢ ـ ﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالحبل المحكم ، وعدم الانفصام ترشيحٌ .

٣ ـ ﴿من الظلمات إلى النور﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في تلخيص البيان : وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد ، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر ، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب ، وعاقبةُ الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب[1] .

فَـــائِـــدَة : أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة .

تَـــنْبِيـــهٌ : آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف : (اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة وآل عمران وطه) قال هشام : أما البقرة فقوله ﴿الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿الم * الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم﴾ وفي طه ﴿وعنت الوجوه للحيِّ القيوم﴾ قال ابن كثير : وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة ، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه . . إلى . . يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ من آية (٢٥٨) إلى نهاية آية (٢٦٠) .

المُنَـاسَـبَة : لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية ، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين ، ذكر هنا نموذجاً عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله ، فذكر ههنا قصصاً ثلاثة : الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم والثانية والثالثة في إثبات الحشر ، والبعث بعد الفناء .

اللغَــــة : ﴿حاجَّ﴾ المحاجّة : المغالبة يقال : حاججته فحججته ، وحاجّه أي بادله الحجة

---

(١) تلخيص البيان ص ١٥ . (٢) ابن كثير المختصر ١/ ٢٣٠

﴿فبهت﴾ انقطع وسكت متحيراً قال العذري :

فما هو إلا أن أراها فَجاءةً فأبهتُ حتى ما أكاد أجيب

﴿خاوية﴾ ساقطة ﴿عروشها﴾ العرش : سقف البيت ، وكلّ ما يهيأ ليُظلّ أو يُكنّ فهو عريش ﴿يتسنَّه﴾ يتغيّر ويتبدّل من تسنَّهت النخلة إذا أتت عليها السنون وغيَّرتها ﴿ننشزها﴾ نركّب بعضها فوق بعض من النشاز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض نشز ومنه نشوز المرأة ﴿فصرُهن﴾ ضمهنّ إليك ثم اقطعهنّ من صار الشيء يصوره إذا قطعه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ

التفسير : ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر ، المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو « النمروذ بن كنعان » الذي جادل إبراهيم في وجود الله ؟ ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره بنعم الله على إنكار وجود الله ، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿إذ قال إبراهيم ربيَ الذي يحيي ويميت﴾ أي حين قال له إبراهيم مستدلاً على وجود الله إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده ربُّ العالمين ﴿قال أنا أحيي وأميت﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضاً أحيي وأميت ، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال : هذا قتلتُه ، وأمر بإطلاق الآخر وقال : هذا أحييتُه ، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إفحاماً ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ أي إذا كنت تدعي الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله، فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فبهت الذي كفر﴾ أي أُخرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة ، وأصبح مبهوتاً دهشاً لا يستطيع الجواب ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ وهذه هي القصة الثانية وهي مثلٌ لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت جدرانها على سقوفها وهي قرية بيت المقدس لما خرَّبها بختنصر ﴿قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ أي قال ذلك الرجل الصالح واسمه « عزير » على الرأي الأشهر : كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها ؟ قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب

إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

والدمار ، وكان راكباً على حماره حينما مرَّ عليها ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثتَ في هذه الحال ؟ قال يوماً ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال : أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله ﴿قال بل لبثتَ مائة عام﴾ أي بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لن يتسنّه﴾ أي إن شككتَ فانظرْ إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنبٌ وتينٌ وعصير فوجدها على حالها لم تفسد ﴿وانظر إلى حمارك﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلاً من البلي ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحماً بقدرتنا ﴿فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله على كل شيء قدير ﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى : اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان ، ولهذا خاطبه ربه بقوله ﴿قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنَّ قلبي﴾ أي أولم تصدِّق بقدرتي على الإحياء ؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب برؤية ذلك ﴿قال فخذ أربعةً من الطير فصرّهنَّ إليك﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهنَّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً﴾ أي فرِّق أجزاءهن على رءوس الجبال ﴿ثم ادعهنَّ يأتينك سعياً﴾ أي نادهنَّ يأتينك مسرعات قال مجاهد : كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً فذبحهن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين مسرعات ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي لا يعجز عما يريده حكيم في تدبيره وصنعه . قال المفسرون : ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها ثم أمسك برءوسها عنده وجزأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيراً كما كانت وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل . ذكره ابن كثير .

البَـــلاَغَـــة : ﴿ألم تر﴾ الرؤ ية قلبية والاستفهام للتعجيب .

٢ ـ ﴿يحيي ويميت﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار ، والصيغة تفيد القصر ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت ، وبين كلمتي « يحيي » و « يميت » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ « المشرق » و « المغرب » .

٣ ـ ﴿فبهت الذي كفر﴾ التعبير بالنص السامي يشعر بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال : فبهت الكافرُ لما أفاد ذلك المعنى الدقيق .

٤ ـ ﴿أنّى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ موت القرية هو موتُ السكان فهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال ويسمى المجاز المرسل .

٥ ـ ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ نسترها به كما يستر الجسد باللباس قال أبو حيان : الكسوةُ حقيقةً هي ما وراء الجسد من الثياب واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطّى العظم وهي استعارة في غاية الحسن[1] .

الفَـــوَائِـــد : الأولى : قال مجاهد : ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان ، وكافران فالمؤمنان « سليمان بن داود » و « ذو القرنين » والكافران « النمرود » و « بختنصّر »[2] الذي خرّب بيت المقدس .

الثانية : لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال ﴿إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

الثالثة : سؤال الخليل ربه بقوله ﴿كيف تحيي الموتى﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كيف﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ(نحن أحق بالشك من إبراهيم) ومعناه : ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى .

* * *

قال الله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . . إلى . . وما يذكّر إلا أولوا الألباب﴾

من آية (٢٦١) إلى نهاية آية (٢٦٩) .

المُنَـاسَـبَـة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : أولياء الله وهم المؤمنون ، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان ، ذكر هنا ما يرغّب في الإنفاق في

(١) البحر المحيط ٢/ ٢٩٤ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٢٣٤

سبيل الله وخاصة في أمر الجهاد لأعداء الله ، لأن الجهاد في سبيل الحق له ميادين ثلاثة : أولها الإقناع بالحجة والبرهان وثانيها الجهاد بالنفس وثالثها الجهاد بالمال ، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال .

اللغـــة : ﴿المنُّ﴾ أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه ، وأن يذكّره النعمة على سبيل التطاول والتفضل قال الشاعر :

أفسدتَ بالمنِّ ما أسديتَ من حَسَن ليس الكريمُ إذا أسدى بمنّان

﴿رئاء الناس﴾ لا يريد بإنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس وأصله من الرؤية وهو أن يري الناسَ ما يفعله حتى يثنوا عليه ويعظموه ﴿صفوان﴾ الصفوان : الحجر الأملس الكبير قال الأخفش : وهو جمع واحده صفوانه وقيل : هو اسم جنس كالحجر ﴿وابلٌ﴾ الوابل : المطر الشديد ﴿صلداً﴾ الصَّلْدُ : الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئاً ومنه جبينٌ أصلد ﴿بربوة﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض يقال : ربوة ورابية وأصله من ربا الشيء إذا زاد وارتفع ﴿طلٌّ﴾ الطلُّ : المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة وقال قوم منهم مجاهد : الطلُّ الندى ﴿إعصار﴾ الإعصار : الريح الشديدة التي تهبُّ من الأرض وترتفع إلى السماء كالعمود ويقال لها : الزوبعة ﴿تيمّموا﴾ تقصدوا ﴿تغمضوا﴾ من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه وهذا كالإغضاء عند المكروه .

سَبَبُ النّزول : نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك ، حيث جهّز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار ، فصار رسول الله ﷺ يقلّبها ويقول : ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم ، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال يا رسول الله : كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها ربي ، فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، فنزلت فيهما الآية ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . .﴾[1] الآية .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ

التفسيـــر : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ قال ابن كثير : هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿في كل سنبلةٍ مائة حبة﴾ أي كل سنبلةٍ منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلّتْ سبعمائة حبة ، وهذا تمثيل لمضاعفة

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٧ .

أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ

الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل عليم بنيّة المنفق ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لايُتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على من أحسنوا إليه كقوله قد أحسنتُ إليك وجبرتُ حالك ، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا يعتريهم فزعُ يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائتٍ من زهرة الدنيا ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقةٍ يتبعها أذى﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفحُ عن إلحاحه ، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذلّ السؤال ﴿والله غني حليم﴾ أي مستغنٍ عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره . . ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمنّ والأذى ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظانُّ أرضاً طيبةً منبتةً ﴿فأصابه وابلٌ فتركه صلداً﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ولهذا قال تعالى ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيءٍ منها أصلاً ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد . . ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصديقاً بلقائه تحقيقاً للثواب عليه ﴿كمثل جنةٍ بربوة﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكانٍ مرتفع من الأرض ، وخُصَّت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها ﴿أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جنيَّة مضاعفة ، ضعفي ثمر غيرها من الأرض ﴿فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌّ﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف أو يكفيها الندى

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ أي أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غناء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿له فيها من كل الثمرات﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبيّن الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدقوا منه ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتموه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فكيف تؤدون منه حق الله ! ! ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ أي أنه سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء . . ثم حذّر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفاً لما أنفقتموه زائداً عن الأصل ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ أي يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى .

البـلاغـة : ١ - ﴿كمثل حبة﴾ شبّه سبحانه الصدقة التي تُنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعمائة حبة ، ففيه تشبيه « مرسل مجمل » لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان : وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر [١] .

٢ - ﴿أنبتت سبع سنابل﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسنادٌ مجازي ويسمى « المجاز العقلي » لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى .

٣ - ﴿منّاً ولا أذى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول لأن الأذى يشمل المنّ .

٤ - ﴿كمثل صفوان عليه تراب﴾ فيه تشبيه يسمى « تشبيهاً تمثيلياً » لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كمثل جنةٍ بربوة﴾ .

٥ - ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة . .﴾الآية ،لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة « استعارة تمثيلية » وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبّه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه ، والهمزة للاستفهام والمعنى على التبعيد والنفي أي ما يود أحدٌ ذلك .

٦ - ﴿تغمضوا فيه﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة [٢].

الفـوائـد : الأولى : قال الزمخشري : المنُّ أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، وفي نوابغ الكلم « صنوان من منح سائله ومنَّ ، ومن منع نائله وضنّ » و « طعم الآلاء أحلى من المنّ وهي أمرُّ من الآلاء مع المنِّ »[٣] وقال الشاعر :

وإن امرءاً أسدى إليَّ صنيعةً ... وذكّر فيها مرةً للئيمُ

الثانية : المطر أوله رشٌ ثم طشٌ ثم طلٌ ثم نضحٌ ثم هطلٌ ثم وبلٌ والمطر الوابل الشديد الغزير .

الثالثة : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ «فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ ؟ قالوا : الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس ضربت مثلاً بعمل لرجلٍ غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» أخرجه البخاري .

الرابعة : قال الحسن البصري : هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله : شيخ كبير ، ضعف جسمه ، وكثر

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٠٤ . (٢) الفتوحات الإلهيه ١/ ٢٢٣ . (٣) الكشاف ١/ ٢٣٨ والالاء بالفتح شجرٌ حسن المنظر مر الطعم كذا في الصحاح .

صبيانه أفقر ما كان إلى جنته فجاءها الإعصار فأحرقها ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذر . . إلى . . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ من آية (٢٧٠) إلى نهاية آية (٢٧٤)

المنَاسَبَة : لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير ، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته ، وترغّب في إخفاء الصدقات لأنها أبعد عن الرياء ، فوجه المناسبة ظاهر .

اللغَة : ﴿فنعمّا﴾ أصلها « نعم ما » أدغمت الميمان فصارت نعمّا قال الزجاج : أي نعم الشيء هو.﴿أحصروا﴾ الحصر : الحبس أي حبسوا أنفسهم على الجهاد وقد تقدم معنى الحصر ﴿التعفف﴾ من العفة يقال : عفّ عن الشيء أمسك عنه وتنزّه عن طلبه والمراد التعفف عن السؤال ﴿بسيماهم﴾ السِّيما : العلامة التي يعرف بها الشيء ويقال : سيمياء كالكيمياء وأصلها من السِّمة بمعنى العلامة قال تعالى ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ ﴿إلحافاً﴾ الإلحاف : الإلحاح في السؤال يقال : ألحف : إذا ألحَّ ولجَّ في السؤال والطلب .

سَبَبُ النّزول : عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ : (لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم) فنزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ مبيحةً للصدقة على من ليس من دين الإسلام[1] .

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ

التفسِير : ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإنَّ الله يعلمه﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله ، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله ﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هي﴾ أي إن تظهروا صدقاتكم فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أي وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿ويكفّر عنكم من سيئاتكم﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيء آثامكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي هو سبحانه مطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم ، والآية ترغيب في الإسرار

(١) القرطبي ٣/ ٣٣٧ .

وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾ أي ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد ، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب ، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أي أيّ شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ خبرٌ بمعنى النهي أي لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ دنيوي ﴿وما تنفقوا من خيرٍ يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ أي اجعلوا ماتنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد ، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إلحاح وقيل معناه : إن سألوا سألوا بلطفٍ ولم يلحّوا ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات ، من ليل أو نهار ، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا .

البَلاغَة : ١ - ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بين أنفقتم ونفقة جناس الاشتقاق وكذلك بين نذرتم ونذر .

٢ - ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ في الإبداء والإخفاء طباق لفظي ، وكذلك بين لفظ « الليل والنهار » و « السر والعلانية » وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ إطناب لورودها بعد قوله ﴿يوفّ إليكم﴾ الذي معناه يصلكم وافياً غير منقوص .

فـائـدة : قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطُنع إليك فانشره وأنشدوا :

يُخفي صنائعه والله يُظهرها إن الجميل إذا أخفيتَه ظهرا

* * *

قال الله تعالى : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون . . إلى . . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ من آية (٢٧٥) إلى نهاية آية (٢٨١).

المناسبة : لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا ، وحضّ على الصدقة ورغب في الإنفاق في سبيل الله ، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالح الطالح ، الذي هو شحٌ وقذارة ودنس ، بينما الصدقة عطاء وسماحة وطهارة ، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك الوجه الطيب من الإنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق بجلاء بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل « وبضدها تتميَّز الأشياء » .

اللغــة : ﴿الربا﴾ لغة : الزيادة يقال : ربا الشيء إذا زاد ومنه الربوة والرابية ، وشرعاً : زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل ﴿يتخبطه﴾ التخبط : الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي : خبط في عشواء وتورَّط في عمياء ، وتخبطه الشيطان إذا مسّه بخبلٍ أو جنون ﴿المسُّ﴾ الجنون وأصله من المسّ باليد كأن الشيطان يمسُّ الإنسان فيحصل له الجنون ﴿سلف﴾ مضى وانقضى ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يمحق﴾ المحق : نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال يقال : محقه الله فانمحق وامتحق ﴿أثيم﴾ كثير الإثم المتمادي في الذنوب والآثام .

سبب النزول : كان لبني عمرو من ثقيف ديونٌ ربا على بني المغيرة فلما حلّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله . .﴾ الآية فقالت ثقيف : لا يد لنا « أي لا طاقة لنا » بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط[١] .

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا

التفسير : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه ، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سوياً ، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٣٧

ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟

استحلالهم ما حرّمه الله ، وقولهم : الربا كالبيع فلماذا يكون حراماً ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿وأحلّ الله البيع وحرّم الربا﴾ أي أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع ، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، لأن فيه زيادة مقتطعةً من جهد المدين ولحمه ﴿فمن جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ أي من بلغه نهيُ الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿وأمره إلى الله﴾ أي أمره موكول إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحله بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿يمحق الله الربا ويُربي الصدقات﴾ أي يُذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر ، ويُكثر الصدقات وينمّيها وإن كانت نقصاناً في الشاهد ﴿والله لا يحب كل كفّار أثيم﴾ أي لا يحب كل كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار ، ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة ، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون ،واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقاً ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم قال ابن عباس : يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون﴾ أي إن رجعتم عن الربا وتركتموه فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرةٌ إلى ميسرة﴾ أي إذا كان المستدين معسراً فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه : إمّا أن تَقْضي وإمّا أن تُرْبي ﴿وأن تصدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي إن تجاوزتم عمّا لكم عنده فهو أكرم وأفضل ، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل

يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

والأجر العظيم ثم حذّر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال ﴿واتقوا يوماً تُرجعـون فيه إلى الله ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ أي احذروا يوماً سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفـى كل نفس حسابها وأنتم لا تظلمون ، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي ، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد قال ابن كثير : هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى .

البـلاغـة : ١ ـ ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهـو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبّه مكان المشبّه به كقول الشاعر : كأن ضياء الشمس غرةُ جعفر والأصل في الآية أن يقال : الربا مثل البيع ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه فشبهوا به البيع .

٢ ـ ﴿أحل الله البيع وحرّم الربا﴾ بين لفظ « أحلّ » و « حرَّم » طباق وكذلك بين لفظ « يمحق » و « يربي » .

٣ ـ ﴿كفّار أثيم﴾ صيغة فعّال وفعيل للمبالغة فقوله ﴿كفّار أثيم﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم .

٤ ـ ﴿فأذنوا بحرب﴾ التنكير للتهويل أي بنوعٍ من الحرب عظيم لا يُقادر قدره كائن من عند الله أفاده أبو السعود .

٥ ـ ﴿لا تَظْلمون ولا تُظْلمون﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى « الجناس الناقص » لاختلاف الشكل .

٦ ـ ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

الفـوائـد : الأولى : عبّر بقوله ﴿يأكلون الربا﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواءٌ في ذلك المعطي والآخذ لقول جابر في الحديث الشريف « لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : هم سواء »

الثانية : شبّه تعالى المرابين بالمصروعين الذين تتخبطهم الشياطين ، وذلك لأن الله عز وجل أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا يوم القيامة .

الثالثة : يقول شهيد الإسلام سيد قطب عليه الرحمة عند هذه الآية ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ ما نصه « إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب . وما كان أي تهديد معنوي

ليبلغ إلى الحسّ ما تبلغه هذه الصورة الحيّة المجسّمة ، صورة الممسوس المصروع ، ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة هو القيام يوم البعث ، ولكنها ـ فيما نرى ـ واقعة في هذه الأرض أيضاً على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس في حكم النظام الربوي ، إن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبيّة والنفسية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي ، ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك[1]» وهذا رأي حسن .

الرابعة : أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (كان رجلٌ يداينُ الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيتَ معسراً فتجاوز عنه لعلّ الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه)[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين . . إلى . . والله بما تعملون عليم﴾ من آية (٢٨٢) إلى نهاية آية (٢٨٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الربا وبيّن ما فيه من قباحة وشناعة ، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه ، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن ، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع ، وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية .

اللغة : ﴿وليُملِلْ﴾ من الإملاء وهو أنْ يُلقي عليه ما يكتبه يقال : أملَّ وأملى ﴿يبخس﴾ البخس : النقص ﴿تسأموا﴾ السأم والسآمة : الملل من الشيء والضجر منه ﴿أقسط﴾ القِسط : بكسر القاف العَدْل يقال : أقسط الرجل إذا عدل ، وبفتح القاف الجورُ يقال : قسط أي جار ومنه ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ ﴿تضِل﴾ قال أبو عبيد : معنى تضل أي تنسى والضلال عن الشهادة نسيان جزءٍ منها ﴿أدنى﴾ أقرب ﴿ترتابوا﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿فرهان﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقاً للدين .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه﴾ أي إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه ، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها ﴿وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٨٢ . (٢) انظر الأدوار التي مرّ بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٨٩ .

يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ

﴿ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علَّمه الله﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علّمه الله ﴿فليكتب وليملل الذي عليه الحق﴾ أي وليملِ على الكاتب ويلقي عليه المدينُ وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وليتق اللهَ ربَّه ولا يبخسْ منه شيئاً﴾ أي وليخشَ الله ربَّ العالمين ولا ينقص من الحق شيئاً ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كان صبياً أو شيخاً هرماً ﴿أو لا يستطيع أن يُملَّ هو فليمللْ وليُّه بالعدل﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعيٍّ أو خرسٍ أو عُجْمة فليملل قيِّمه أو وكيله بالعدل من غير نقصٍ أو زيادة ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين ، فليشهد رجلٌ وامرأتان ممن يُوثق بدينهم وعدالتهم ﴿أن تضِلَّ إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى﴾ أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكّرها الأخرى ، وهذا علةٌ لوجوب الاثنتين لنقص الضبط فيهن ﴿ولا يأب الشهداءُ إذا ما دُعوا﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادةِ أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ أي لا تملّوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى ، وأثبت للشهادة لئلا تنسى ، وأقرب أن لا تشكّوا في قدر الدَّين والأجل ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم﴾ أي إلا إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثمن مقبوضاً ﴿فليس عليكم جُناح ألا تكتبوها﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقاً سواءً كان البيع ناجزاً أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد﴾ أي لا يضر صاحبُ الحق الكتّاب والشهود ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم﴾ أي إن فعلتم ما نهيتم عنه فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿واتقوا

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

الله ويعلمكـم اللـه﴾ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴿والله بكل شيء عليـم﴾ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴿وإن كنتم على سفـرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضـة﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجلٍ مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم ، فليكن بدل الكتابة رهانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقةً لدينه ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربـه﴾ أي فإن أمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴿ولا تكتموا الشهـادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبُـه﴾ أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير ، يجعل القلب آثماً وصاحبه فاجـراً ، وخُصَّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء ، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴿واللـه بما تعملـون عليم﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد .

البَـلاَغَـة : ١ ـ في الآية من ضروب الفصاحة « الجناس المغاير » في قوله ﴿تداينتم بدين﴾ وفي ﴿استشهدوا شهيديـن﴾ وفي ﴿اؤتمن أمانته﴾ وفي ﴿يعلمكم..وعليم﴾ .

٢ ـ الطباق في قوله ﴿صغيراً أو كبيراً﴾ وفي ﴿أن تضـلَّ . . وتذكِّر﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان .

٣ ـ وفي الآية أيضاً الإطناب في قوله ﴿ فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ﴾ وفي ﴿ فليملل الذي عليه الحق . . فإن كان الذي عليه الحق ﴾ وفي ﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ .

٤ ـ الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثلته صاحب البحر المحيط .

٥ ـ كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿واتقوا الله﴾ ﴿ويعلمكم الله﴾ ﴿والله بكل شيء عليم﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس .

٦ ـ ﴿وليتق الله ربّه﴾ جمع ما بين الإسم الجليل والنعت الجميل مبالغة في التحذير .

فَـائِـدَة : العلـم نوعـان : كسبيٌّ ووهبيٌّ ، أمـا الأول فيكون تحصيلـه بالاجتهـاد والمثابـرة والمذاكرة ، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللَّدُني ﴿وآتيناه من لدنَّا علماً﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله :

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدنـي إلـى تـرك المعاصي
وأخبرنـي بـأن العلـم نـور ... ونـور اللـه لا يهُـدى لعاصي

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

المناسبة : ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين الخ فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء ، والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة ، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد .

اللغة : ﴿إصراً﴾ الإصر في اللغة : الثقل والشدة قال النابغة :

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا

وسميت التكاليف الشاقة إصراً لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إصراً لأنه ثقيل . ﴿طاقة﴾ الطاقة : القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل ﴿ اعف عنا ﴾ ، العفو : الصفح عن الذنب ﴿واغفر لنا﴾ الغفران : ستر الذنب ومحوه .

سبب النزول : لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا : كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سمعنا وعصينا﴾ قولوا ﴿سمعنا وأطعنا﴾ (فلما قرأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[1] الآية) .

التفسير : ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السموات والأرض المطّلع على ما فيهن ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يعفو عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدّق محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي وكذلك المؤمنون ﴿كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي الجميع من النبي والأتباع صدَّق بوحدانية الله ، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لا نفرِّق بين أحدٍ من رسله﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما

(١) أخرجه مسلم وانظر اسباب النزول للواحدي ص ٥١ .

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك فنسألك يا ألله المغفرة لما اقترفناه من الذنوب وإليك وحدك يا ألله المرجع والمآب . ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير ، وجزاء ما اقترفت من شرّ ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم والمعنى لا تعذبنا يا ألله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿ربنا ولا تحمِل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم كقتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة ﴿ربنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي أنت يا ألله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا ، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين ، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ . روي أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة : قد فعلتُ .

البَلاغَة : ١ ـ تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها «الطباق » في قوله ﴿وإن تبدوا . . أو تخفوه﴾ وبين « يغفر » و « يعذب » ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كسبت﴾ و﴿اكتسبت﴾ لأن كسب في الخير واكتسب في الشر .

٢ ـ ومنها الجناس ويسمى جناس الاشتقاق في قوله ﴿آمن . . والمؤمنون﴾ .

٣ ـ ومنها الإطناب في قوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ .

٤ ـ ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿والمؤمنون﴾ أي آمنوا بالله ورسله ومواضع أخرى .

فَائِدَة : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه) أخرجه البخاري وفي رواية لمسلم أن ملكاً نزل من السماء فأتى النبي ﷺ فقال له : « أبشرْ بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيتَه » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة »

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالي السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

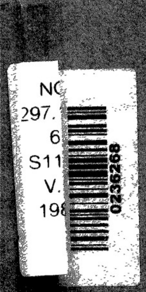
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تَعَالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى



يوزع مجاناً ولا يباع